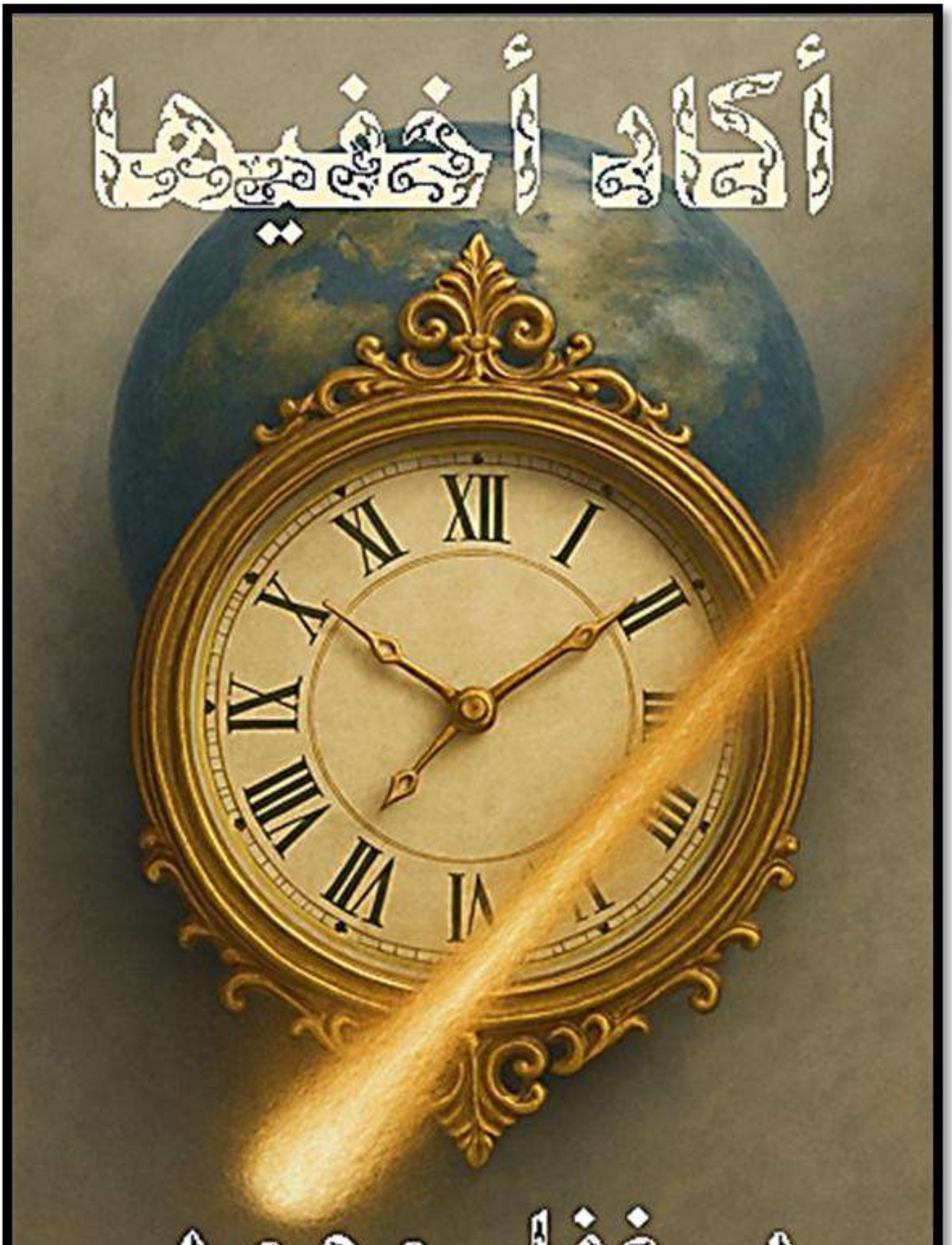
أكاد أخفيها
د. غفار محمد

أكاد أخفيها

روايه من أدب التشويق و الخيال

د. غفار محمد

أكاد أخفيها ..

الإهداء :

إلى بشر لم يولدوا بعد ..

و ربما سيشهدون نفحات من

هذه الرواية ..

أكاد أخفيها ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل

تشابه مع الواقع في الأسماء و

الأحداث و كثير من الأماكن هو

محض صدفة ..

أكاد أخفيها ..

محتوى الكتاب :

- جبل الذهب ..
- مذنب القيامة ..
- أكاد أخفيها ..
- مخطوطة فوينيش ، خريطة بيري ريس و هرم إلسوورث ..
- سد ذي القرنين ..
- الناقة المعجزة و النار العظيمة ..
- أعور الجن ..
- صراع العمالقة ..
- يسوع و المهدي ..
- و جمع الشمس و القمر في قلب الدخان..
- التفت الساق بالساق ..

جبل الذهب..

تركيا / أنقرة ..

2470 م ..

لم يكن صباحاً عادياً كغيره على الإطلاق، تماهى فيه المناخ المكفهر مع الظروف السياسية المتوترة ، فتحت سماء رمادية تغلي بالبروق و الصواعق، انعقد الاجتماع الطارئ للحكومة التركية خلف أبواب مغلقة، داخل القصر الزجاجي الذي اعتاد أن يعكس وجوه القادة لا قراراتهم. و كان الهواء في القاعة مثقلًا بالكلمات غير المنطوقة، والرؤية معتمة رغم زجاج السقف اللامع، كأنّ السماء ذاتها تحبس أنفاسها في انتظار ما سيُقال. كراسي الوزراء تحيط بالمائدة البيضاوية كخنادق متقابلة، والعيون تتجنب الالتقاء، بينما الشاشات التفاعلية تعرض خريطة ممزقة للأقاليم الحدودية، تتلوّن فيها النقاط الحمراء كجمرٍ حيّ يتقد تحت رماد هشّ.

اجتمعوا ليواجهوا الحقيقة التي تأخروا كثيرًا في الاعتراف بها : تصعيد كردي هو الأعنف منذ أن وُجدت الخريطة كما نعرفها، والحدود كما صُمِّمت، والأقليات كما وزعت.

من شرق الأناضول حتى **جبال قنديل**، ومن مشارف **الحسكة** حتى أطراف **مهاباد**، ارتفعت أصوات الكرد تطالب، لا بمزيد من الحقوق، بل بالانفصال التام والانضمام إلى ما أصبح يُعرف إعلاميًا **بالاتحاد الكردي العظيم** تحت مظلة كردستان العراق. إنه الحلم المؤجل لأكثر من ألف عام، والذي بات الآن يُطرَق على أبواب الحاضر لا بهتاف الشعارات، بل بأزيز الرصاص وظلال القنابل.

كانت الأعين مصوبة نحو العراق، حيث تُروى الأساطير الجديدة في أروقة السياسة، وحيث تداولت التقارير الاستخباراتية التركية أنباءً مقلقة، بل كارثية: كردستان العراق ربما أصبحت قوة نووية،

بتمويل خارجي غامض ودعم لوجستي من جهات لم يُكشف عنها، وسط صمت عالمي يثير الريبة ..

إذ تسرّب، من خلال ما عُرف **بوثائق دجلة** ، أن زعيم الحكومة الإقليمية في أربيل **جومرد حسين** قد لوّح ضمنيًّا باستخدام هذا السلاح في حال تمّ قمع التحرك الانفصالي بالقوة. لم يبدُ الأمر هذه المرة كخرافة عابرة أو بروباغندا تهويل، بل كمخطط محكم، تسندُه بيانات، ورموز، ورجال لا تُعرَف وجوههم.

في تركيا، التي أصبحت منذ قرنين من الزمان قوة نووية عظمى إثر ما سُمّي آنذاك **بنهضة الأناضول التكنولوجية** ، لم يكن الرد ليأتي ببطء. وفي الوقت الذي ارتفعت فيه مؤشرات التهديد إلى المستوى الأحمر داخل الأروقة العسكرية، دعا رئيس الحكومة **عِصمت أوزدمير** إلى عقد اجتماع طارئ أشبه بمجلس حرب معلن، حيث كل كلمة فيه قد تترجم إلى قنبلة أو إلى هدنة، إلى مستقبل أو إلى خراب شامل.

بصوته العميق المتهدّج، بدأ النقاش معتصراً خبرته السياسية المعتقة كما يعصر العنب تحت الأقدام في رحلته إلى نبيذ :

= نحن لا نقف اليوم أمام أزمة حدود، بل أمام احتمالية نهاية شكل الشرق الأوسط الذي عرفناه .. لسنا في مواجهة مطالب، بل في مواجهة رواية بديلة للتاريخ، تسعى لتشكيل جغرافيا جديدة بدماء قديمة. إنّ صمتنا الآن سيكون استسلاماً و خنوعاً و خسارة ، كذلك الحال فردّنا المتهور سيكون كارثة. لكن بين الخنوع والكوارث، تقع مهمة رجل الدولة : أن يختار الصدع الأقل تكسُّرًا...

صمت للحظات محدقاً في حدقات المجتمعين، ثم تابع بنبرةٍ أقرب إلى اعترافٍ مرير:

= لقد تحوّل الإقليم الكردي، إن صحّت المعلومات، إلى كيان يحمل

نبوءة السلاح النووي. ولأننا نحن - كما يعرف العالم - نملك ما يتجاوز الردع، فإن الحسابات هذه المرة ليست عن القوة بل عن التوقيت، لا عن الإمكان بل عن الحكمة.

دُفعت ملفات فوق الطاولة، تتضمن تقاريرًا استخباراتية مرعبة : حشود كردية موحّدة على أطراف الحدود، مظاهرات مليونية في **ديار بكر** و **ماردين** ، تسريبات صوتية من **كرمانشاه** تؤكد وجود اضطراب داخلي خطير ، وبيانات تنسيق ميداني بين ميليشيات من سوريا والعراق وإيران تحت راية كردية واحدة.

عقّب وزير الداخلية **كمال شاهين** ، بشيء من التوتر :

= نحن لا نواجه انتفاضة... نحن أمام إعلان غير مباشر لحرب استقلال ، لا حرب تمرد.

في تلك اللحظة، ساد صمتٌ عظيم، شبيه بذلك الصمت الذي يسبق زلزالًا لا راد له ، حيث لا صوت إلا خفقات القلوب المتوجسة، وتلك الضربات الخفيفة على الطاولة التي يصدرها إصبع وزير الدفاع بتوتر، وكأنها ساعةٌ تحصي الوقت المتبقي حتى الانفجار... ثم تكلم رئيس الحكومة، **عصمت أوزدمير** مجدداً، بصوتٍ متماسكٍ يخفي في أعماقه رجفة العقل حين يضطر للعب بالنار :

= إن نحن اخترنا الحل العسكري ، و هو الأقرب للواقع كما يبدو ، فما احتماليات الانتصار في الحرب سيد إبراهيم ..

أجاب وزير الدفاع، **إبراهيم أوزتورك،** بنبرة من صقيع أشبه بنصل سيف نوردي يفصل حده بين الواقع و الأوهام :

= الغلبة ستكون لمن يسبق، حضرة الرئيس. من يضرب أولاً، يكتب الصفحة الأولى من التاريخ .. حروب السيوف و البنادق و

الصواريخ ولت منذ قرون ، نحن نتحدث عن حروب من أزرار الآن .. من يضغط الزر أولاً سيبطل زر الخصم ..

هز عصمت، - الذي بدا كمن خاض غمار ألف حرب وخرج منها مكسورًا بحكمة - رأسه نافيًا. كانت عيناه تشي بما لا يقال :

= حرب نووية مباشرةً !! وهل تريد أن يُخلَّد اسم تركيا بأحرف من دماء ؟ لا أريد أن تُكتَب وصمة عار على رايتنا بأننا لم نفاوض ، لم نناور ، لم نفكر بحلول أخرى ..

رد وزير الدفاع ابراهيم بتوتر ..

= سيد عصمت ، إن صحت التقارير الاستخباراتية بامتلاك الأكراد لسلاح نووي ، فالحرب الكلاسيكية ستكون عبارة عن توقيع على الخسارة .. هم يعرفون أنها حرب غير متكافئة ، لذا سيبادرون باستخدام أقوى سلاح بين أيديهم و هو بالطبع النووي ، إن صدقت عيوننا الخفية .. لا أحد منا يريد الدماء .. لكن الواقع المر أنه يجدر بنا أن نختار بين دمائنا أو دمائهم .. إن استخدموا النووي فلن نبقى كي نناور أو نرد

عصمت بحزم ..

= الحل النووي يبقى كآخر الحلول .. أريد حلاً خلاقاً... بديلاً عن هذا الحل الكارثي ...

على طرف الطاولة جلس **كيرال بك**، الرجل الذي لا يُذكر اسمه في الصحافة، ولا تلاحقه عدسات الكاميرات، لكنه يُحرّك الكثير من خيوط الدولة العميقة .. مسح نظارته الداكنة، وانحنى قليلًا للأمام، كما لو أنه يهمس للعالم من تحت الأرض :

= يمكننا خنقهم مائيًا أفندم ... بحرمانهم من نهري دجلة والفرات.

خيّم ظل مهيب على الجلسة، وكأن فكرة خنق أمة بأكملها بمصدر الحياة، قد بعثت أشباح القرون إلى الطاولة.. إن كان النووي يقتل مئات الآلاف في ثوان ، فالحرمان من المياه يقتل الجميع ببطء ..

واصل كيرال موضحاً :

= لن يكون فعلاً دائماً ، فقط لأسابيع أو أشهر ، سيعاني الأكراد كما لم يعانوا من قبل ، عندها سيصبحون الطرف الأضعف في التفاوض، و سيركعون قبل أن يتكلموا .. عند هذه النقطة ، يمكننا أن نُبرم صفقة معهم : إعادة الجريان مقابل صمتهم، مقابل نسيان فكرة الاستقلال.

قوس عصمت حاجبيه بدهشةٍ لم تُخفِ قلقه، و سأل بتثاقل :

= و في حال كان ردهم على إجرائنا عسكريًا ؟

جاء صوت كيرال حازماً ، بنبرة لا تعرف الحياد :

= عندها سيكون ردّنا العسكري حاسمًا و لا بديل عنه .. بلد بلا ماء لن يصمد طويلاً في أي حرب.. نحن نعلم، وهم يعلمون، أن المحيط بهم ليس حليفًا.. لا تكافؤ في القوى، لا أمل في الانتصار.. و...

توقف لحظة، ثم أكمل بنبرة هادئة بشكل مخيف :

= قنبلة نووية تكتيكية صغيرة في صحراء كردستان العراق ... ستعيد للذاكرة قصة **هيروشيما و سيبيريا و وادي الموت** .. الاستسلام سيكون غير مشروط، وسريعًا.. و كما يُقال، آخر العلاج الكي... أفندم.

ساد صمتٌ كثيف.. لم يعارض أحد .. لم يرفع أحد يده .. كانت الأعين تتجنب بعضها، وكأن كل منهم يعرف أن هذا القرار، مهما كان صائبًا في منطق الدولة، سيكتب فصلًا من التاريخ يُقرأ بارتجاف.

أغمض عصمت عينيه للحظات ، كمن يتحمّل وزر قرون، ثم تحدث بصوتٍ حازمٍ دون تردد، لكنه دون انتصار:

= هل من آراء أخرى ؟

نظر حوله، فلم يجد سوى صمتٍ غليظٍ، لا هو رضا ولا اعتراض، بل هو تسليم.

= إذن... الإجماع على خيار حرمان الأكراد من مياه دجلة والفرات لفترة من الزمن حتى الانهيار و قبول التفاوض .. باشروا التنفيذ عقب هذه الجلسة مباشرة ، أغلقوا سدي **أتاتورك** على الفرات و **إيليسو** على دجلة .. أما مجلس الدفاع فليتابع الأمور عن كثب و يضع جميع الاحتمالات الممكنة مع طريقة الرد الفوري تجاه كل منها .. سنبقى على اتصال و تنسيق ..

أُغلقت الجلسة، لكن لم تُغلق نوافذ القلق في أرواح الحاضرين. كانت تركيا تُقدم على قرار بوزن قنبلة، لا تطلق دخانًا فقط، بل تنفذ إجراءً غير مسبوق في وجه الأكراد قد **يفتح أي باب من أبواب سقر السبعة على المنطقة ..**

لم تكن المسألة مجرد سدود أو مياه، بل كانت إرثاً تاريخياً من صراعات الشرق الأوسط ، ستخاض فيه الحروب بأدوات الطبيعة، و ربما النووي، و بالتأكيد الدولة العميقة، وكل ما هو خفي... ومخيف .. فإلام ستؤول الأمور **؟!**

******

بعد شهر ..

لم يكن ما حدث مجرّد انقطاعٍ للماء.

كان انقطاعًا عن الشريان الأخير الذي يربط شعبًا منسيًا بفكرة البقاء.

حين جفّ **دجلة**، لم يجفّ النهر فحسب، بل جفّت ذاكرة الحقول التي اعتادت أن تلد القمح والزعتر. وحين اختنق **الفرات**، لم تختنق الأرض فقط، بل اختنقت معه القصائد التي كُتبت على ضفتيه منذ آلاف السنين.

الناس نزلوا إلى الشوارع لا لأنهم يريدون الاحتجاج، بل لأنّ الصمت لم يعد يحفظ ماء الوجه بعد أن فقدوا ماء الحياة ...

في المدن الكردية، لم تخرج الحشود بحثًا عن الانفصال هذه المرة، بل لتستردّ ما تبقى من كرامة، بعد أن أصبح الماء سلاحًا، والسدّ سكينًا في خاصرة الأمل.

وامتدّ الغضب، لا مثل نارٍ خفيفة، بل كذاكرةٍ مستيقظة منذ قرون : ذاكرة السبي، والقهر، والخرائط الممزقة، ووعود القادة التي لم تثمر سوى مزيدٍ من المقابر الجماعية.

الجموع تهتف، لكن في أعينهم صمتٌ أعمق من الكلام :

(هل يعقل أن تكون نهاية الأمل الجديد في قطرة ماء ؟)

في أحد الكهوف المحصّنة داخل **قمم قنديل**، بعيدًا عن المدن، عن الكاميرات، وحتى عن الرؤية السماوية، اجتمع القادة.

لا أحد يعرف أسماءهم كاملة .. لا أحد يُصرّح برتبهم أو مراتبهم ، حتى الجدران تمّ عزلها بمادة مضادة للتنصّت.

كان الصمت في الاجتماع أثقل من الهواء .. كان كل شيء يوحي بأن المنطقة اقتربت من لحظة ما قبل الزوال.

ثم جاء الصوت الأعلى مثقلاً بكبرياء قرون من الزمن :

= إذا ماتت الأنهار، ماتت الأرض... وسنكون أبناء لخراب صامت ، و الكرديّ يأبى الضيم من أي جهة كانت .. سيدفع الأتراك الثمن باهظاً ..

جملة واحدة، لكنها كانت كافية لتفتتح بوابة الجحيم الملتهبة على مصراعيها ...

الخيار الذي طُرح لم يكن خطيرًا حتى النخاع السياسي و الإنساني فقط، بل ربما نهاية لمرحلة من التاريخ رسمتها موازين قوى أمست بديهية ، كان تهديداً مباشراً بلا مناورة و لا مواربة :

(إذا لم تتراجع تركيا خلال 48 ساعة، فستُقصف إسطنبول بالسلاح النووي.)

كان ذلك القرار انتحارًا عقلانيًا. الأكراد يعلمون ذلك ، و يعون أن الردّ سيكون مدمرًا. و يدركون أن احتمالات الانتصار صفر.

لكنهم في تلك اللحظة، لم يبحثوا عن النصر، بل عن الاعتراف الأخير و الحياة بكرامة ..

لقد قيل في الاجتماع :

(نحن لا نهدد إسطنبول، بل نُجبر التاريخ على النظر إلينا ولو

لمرة واحدة، لا كأرقام، بل كأرواح عطشى للحياة و القبول ..)

في الخلفية، كانت هناك وعود خفية من دول كبرى، ضمانات باهتة بأنهم لن يُتركوا وحدهم .. لكنّ الحقيقة، التي يعرفها الجميع، أن الكرد لطالما خاضوا معاركهم وحدهم، ثم حيدوا خارج غرف المعاهدات.

ومع ذلك، قرروا : أن يقفوا، ولو في فوهة العدم.

الخبر خرج، كصيحة ذئب في ليلٍ محاقي و بلا نجوم.

أسواق إسطنبول لم تعد كما كانت.

المدينة التي اعتادت النظر للأعلى ، بدأت تتلفّت .. المآذن ظلّت شامخة، لكن شيئًا في دعاء المؤذّن بدا وكأنه رجاء هذه المرة، لا نداء.

القيادة التركية لم تكن في حيرة سياسية فقط، بل أمام معضلة وجودية : هل تُقصف كردستان، أم يعاد الماء إليها ليُحفظ ماء وجه الطرفين فيخرجان معاً من عنق الزجاجة ؟

لكن حين يُبتلع التهديد، ويُعاد فتح النهر، سيُكتب في التاريخ أن تركيا رضخت للابتزاز و ركعت ؟

جلس عصمت أوزدمير في ليله الطويل، لا يراجع الخرائط، بل يراجع حدود الضمير الإنساني .. و يقلب في عقله الاحتمالات الممكنة التي بدت تخنقه بين مطرقة الدم و سندان الانصياع .. سأل نفسه بحيرة :

(هل يُعقل أن تبدأ حرب عالمية جديدة ... لأن أحدهم حرم آخر

من الماء ، شريان الحياة و عصب الوجود ؟)

ثم تابع مونولوجه الداخلي مشككاً بقرارات المجلس الحكومي قبل أسابيع :

(ومَن نكون نحن، إذا قابلنا العطش بالرماد، والاحتجاج المشروع بسلاح القيامة ؟)

لكن في تلك اللحظة، لم يعد القرار قرار قادة.

كان قرار الزمن.

كل حرب تبدأ بجملة... لكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ كيف ستنتهي.

و في مكان ما، كانت يد صغيرة تحمل كوبًا فارغًا، لا تعرف عن لغة السياسة شيئًا و لا عن أهوال الحروب نظرة ، لكنها تفهم جيدًا أن الحياة، بكل عظمتها، قد تتوقف على **قطرة ماء**..

******

تلال الذهب ..

ما لم يكن في الحسبان، ولم ترصده أجهزة المخابرات، ولم تتوقعه طاولات السياسة، هو أن المجزرة ستبدأ في مكان آخر تمامًا.

بعيدًا عن **الأناضول**، وعن **جبال قنديل**، وعن **إسطنبول** المترقبة، كانت الفتنة الكبرى تتشكّل بصمت في قلب **جنوب العراق**، حيث ينام التاريخ تحت الطين، وينبض الغيب من تحت ركام الأديان.

انحسر نهر الفرات.

ليس قليلًا، بل انحسر كأنما يد خفية رفعت الماء جانبًا لتكشف للعالم

شيئًا لا يُوصف بالكلمات :

تلال.

تلال كاملة.

من الذهب.

ظهرت فجأة، بطريقة أقرب لسحر الحواة ، لا تنتمي إلى منطق الفيزياء ولا حسابات الجيولوجيا، بل ربما إلى ميثولوجيا قديمة أو برديات تاريخية تُتلى في المساجد بحذر، وتُهمس في الليالي الرمضانية بصوت متهدج :

(لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، فيقتتل الناس عليه...)

و لم يكن في المشهد سوى الرعب.

ذهب... كثير... لا يقدر بثمن.

لكنه مغلف **بلعنة**، وكأنّ كل حفنة منه تحكي عن قيامة وشيكة.

انتشرت الصور قبل أن تفهمها العقول أو تفسرها الفرضيات ..

بث مباشر من طائرات مسيّرة محلّية.

عيون مذهولة، وكاميرات تلفزيونية تتدافع، وصحف تتناقل العناوين بذهول :

(الفرات يكشف جبل الذهب الموعود... هل بدأت القيامة ؟)

لم يكن الناس بحاجة إلى تحليل. فما قيل على لسان نبي الرحمة،

لم يكن مجرد رمز. لقد وُقِرَ في قلوب الناس، جيلاً بعد جيل، أن انكشاف هذا الجبل سيكون بداية النهاية كما وعد ..

لم يكن الذهب هنا مجرّد معدن. كان **امتحانًا سماويًا**. وكلٌّ قرأه على طريقته :

- الفقراء رأوا فيه خلاصًا من القهر،
- المتعصبون رأوا فيه فتنة يجب احتكارها،
- السلطات رأته خطرًا على الأمن القومي،
- أما العلماء، فتواروا خلف شاشات التحليل، عاجزين عن النطق.

وفي المساجد، علا صوت الخطباء يتوسلون الله أن لا يُفتن الناس،

لكن كان الأوان قد فات، فأول رصاصة أُطلقت في الهواء لم تكن تحذيرًا، بل افتتاحًا لنزاع قد يقود المنطقة إلى حافة الفناء.

خيام بدأت تنصب حول منطقة التلال ..

جماعات مسلحة من داخل العراق وخارجه هرعت إلى الجنوب، كلٌّ يدّعي أن الذهب من حقه ، أن النبوءة تخصّه، أن القيامة يجب أن تبدأ بيديه.

سُجّلت أولى المجازر بعد يومين فقط، أُحرقت أكثر من خمسين خيمة، وأعلنت ثلاث فصائل ولاءها لتلال الذهب ، لا لوطن، لا لحدود.

الناس بدأت تغادر المدن، ليس هربًا من القتال، بل من الرؤيا نفسها. من فكرة أن التاريخ قد انتهى، وأن ما تبقى من العالم هو مجرد مسرح انتظار ..

وفي العواصم، اهتزت مراكز الأبحاث، الخبراء تساءلوا بذهول :

(هل صراعات القرن الخامس والعشرين ستُحسم لا بالتكنولوجيا ، ولا بالنووي ، و لا بالماء، بل بنبوءة تفتح أبواب النهاية ؟)

وحدها الصحف الصفراء تجرأت وكتبت على غلافها بلا تزويق :

(هذا ليس ذهبًا... هذه لعنة ..)

هكذا ، من الجنوب العراقي، ارتفعت رايات النبوءة ، و في ساعات قليلة، عاد اسم **يوم القيامة** إلى تصدر العناوين الكبرى.

محطات الأخبار، من **نيويورك** إلى **كيب تاون** إلى **طوكيو** ، تقاطرت تقاريرها تحت عنوان واحد :

(هل هذا هو جبل الذهب الموعود .. جبل القيامة ؟)

بين فقهاء الدين، انقسم الرأي :

– من قال : نعم، هذه علامة الساعة الكبرى التي أخبر بها النبي محمد، وقد بدأت العدّ التنازلي للتو ..

– ومن قال : لا، إنما هو ذهب منسي تحت الأرض، انكشف بفعل الجفاف لا النبوءة ..

لكن بين الجدل واليقين، كان العالم يعيش لحظة تشبه قيامته المصغّرة :

لم يعد أحد يرى العراق مهد الحضارات كخريطة، بل كمهد جديد لعلامة من علامات الساعة.

الأسواق اهتزّت.

الذهب تذبذبت أسعاره عالميًا،

والكتب الدينية نفدت من المكتبات.

القلق لم يكن اقتصاديًا فقط، بل وجوديًا.

و وحدها العقول المشوهة انكفأت إلى التفسير الأبسط :

(القيامة قادمة... فلننهب ما يمكننا قبل أن تنتهي اللعبة.)

وفي وسط كل ذلك، كان هناك من يقفز فوق التفسير.. علماء، مفكرون، صوفيون، وحتى لا أدريين، قالوا :

(وما الفارق بين النبوءة والصدفة، إذا حملت النتيجة نفسها ؟)

كان بعضهم يؤمن أن ما جرى اختبار إلهي، لا للجشع، بل للعقل :

ـ هل ننقضّ على الذهب ؟

ـ أم نتركه، كما أوصى الحديث النبوي، كي لا نُفتن ؟

لكن الحقيقة، كما بدت على الأرض، كانت أكثر مرارة من كلا التفسيرين.. الذهب لم يُحرّك فقط الجشع، بل كشف عمّا يختبئ في جوف الإنسان من وحشية حين يُمسّ بالحاجة والهلع والرهبة.

وأمام الشاشات، جلست البشرية كلها كمن يتأمل نهايته على البث المباشر.

العالم لم يعد يبحث عن المياه التي جفت و أشعلت لهيب العطش في القلوب و لا حتى عن قيمة تلال الذهب ، بل عن نجاته الشخصية من نهاية قادمة ..

وفي مذكرات أحد الصحفيين السويسريين الذين نجوا من مجزرة جنوب العراق ، كُتبت جملة واحدة :

(حين رأيت الدم يغسل الذهب، فهمت أن هذه ليست قيامة السماء فقط ... بل قيامة الأرض من خيبتها بنا ..)

و أيا كان تفسير البشر لما حدث، سواءٌ صدّقوه نبوءةً ممهورة بختم الغيب، أو قرأوه كصدفة جيولوجية عابرة، فإن المؤكد أن تلال الذهب التي خرجت من خاصرة الفرات لم تكن مجرد معادن نُفض عنها التراب، بل كانت كأنها يدٌ غامضة رفعت غطاء العالم، لتكشف كم نحن هشّون.

الذهب لم يلمع فقط في عيون الطامعين، بل ألقى بظله على كامل الخريطة السياسية، كأنما تحوّلت كتل المعدن إلى شبح يطوف فوق العواصم، ينظر إلى الزعماء بعينٍ تُذكّرهم بأنهم مجرد مؤقتين في لعبة أزلية.

*****

تنفس الصعداء أم حبس الأنفاس ..

تركيا، التي كانت حتى الأمس القريب تتأهب لحرب قد تحرق نصف المنطقة ، نظرت إلى ما جرى في جنوب العراق، فراعها أن تتحوّل نيران الجبهة الكردية إلى فتنة أكبر.

وفهمت - أو خافت - أن تلال الذهب التي ظهرت بسبب إغلاق سدودها ، لن تبقى في مكانها .. وأن الذهب، كالفكرة، حين ينفلت من قمقمه، لا يعرف حدودًا ولا سيادة .. و سيجر خلفه أكثر من مجازر .. أكثر من حروب .. بل يوم القيامة كما قيل.. و لا تريد أن يسجل التاريخ أن إغلاق سدودها كان مبعثاً لفتنة العصر ..

لذا في صباح رماديّ يشبه وجه التاريخ ، قررت تركيا إعادة فتح السدود.

لم يكن قرارًا هندسيًا ..

ولا مبادرة إنسانية ..

ولا حتى تنازلًا سياسيًا أمام الضغط الكردي ..

بل كان وليد الرعب مما هو قادم ، في محاولة يائسة لإجهاض القيامة.

لكن هل يمكن إغلاق الباب الذي فتح ..

السدود أغلقت .. المياه انحسرت .. و تلال الذهب في قاع الفرات ظهرت ..

علامة الساعة تحققت ..

و هيهات أن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء ..

لكن متعلقين بأهداب الأمل .. فتحوا السدود مجدداً .. فتدفقت المياه كما لم تفعل منذ أسابيع، كأنها جنود مستنفرة لتغمر تلال الفتنة قبل أن تتمدد كمرض خفي.

لم تقل تركيا للعالم لماذا..

لكنها فعلت.

لأنها تعترف سرًا بأن ما جرى أكبر من صراعات الاستقلال و الحدود، أكبر من مفاوضات و تقارير استخباراتية، أكبر من كل حروب الشرق الأوسط التاريخية مجتمعة.

كان القرار بمثابة صلاة علمانية خافتة :

(اللهم أطفئ الفتنة بالماء، كما يُطفأ الحريق.. اللهم نجنا مما هو قادم)

وفي لحظة واحدة، أُعيد رسم الخريطة :

الذهب اختفى تحت الماء، وكأنما قُبرت التلال دون شاهد، وارتجّت القلوب التي شاهدت اللعنة تعود إلى القاع من حيث جاءت حاملة معها أرواح عشرات الطامعين الذين نصبوا خيامهم حول غنيمة الذهب فأتى طوفان نوح الجديد عليها ..

و على المقلب الآخر.. في مناطق الكرد حول جبال قنديل مترامية الأطراف .. على الشرفات، وفي غرف الأخبار، بدأت الجموع التي كانت تتأهب للنزول إلى الشوارع الكردية تتراجع.

الأكراد أوقفوا المظاهرات المليونية. ليس استسلامًا، ولا اقتناعًا بسياسة الأبواب المفتوحة، بل لأن العيون تحوّلت بدورها نحو الجنوب، نحو الفرات، نحو ذلك الكنز الذي بدا للحظة وكأنه بابٌ يفضي إلى يوم الدين.

خفتت الشعارات ..

هدأت مكبرات الصوت ..

واستبدل الغضب بانتظار ثقيل ..

كأن الهواء نفسه أصبح أكثر كثافة ..

وأي كلمة تُقال... قد توقظ النبوءة من جديد.

وفي ذلك الصمت غير المسبوق، شعر الشرق الأوسط بشيء يشبه الراحة، لكنها لم تكن راحةً مطمئنة، بل هدوء ما قبل عاصفة القيامة .

بعض المحللين قالوا:

(المنطقة تنفّست الصعداء.)

لكن الحقيقة كانت أوضح و أثقل مما قيل :

(لم تتنفس... بل حبست أنفاسها ..

انتظرت الخيط الأبيض أن ينفصل عن الخيط الأسود ..

أن تفرّق بين فتنة مدفونة وأخرى قادمة ..

بين قاع النهر وسطح الأرض و سقف السماء ..

بين ما يبدو نهاية ..

وما هو مجرد بدء جديد، لما لا يمكن لأحد أن يتكهّن به بعد.)

مذنب

القيامة ..

الولايات المتحدة الأمريكية ..

وكالة سانا ..

2470 م ..

لم تكن البيانات التي وردت من مراكز الرصد في وكالة ناسا بحاجة إلى تزويق.

لم تكن قصة صحفية، ولا مادةً لبرامج المساء.

كانت الحقيقة، خامةً، عارية، ترتجف في حضن الأرقام :

(**نيزك ضخم، يسبح ككائن أعمى في عمق الفضاء، يتجه إلى حيث تدور الأرض.**)

على الورق، يبدو كل شيء مطمئنًا.

المسار مرسوم بدقة.

الاحتمالات محددة.

المسافة آمنة.

لكن من الذي يثق بالأرقام حين يتكلم الفضاء ؟

في **معهد باسادينا للبحوث الفلكية**، جلس البروفيسور **ديفيد مكنيل**،

رأسه مثقل بالخرائط النجمية، عيناه غائرتان في ضوءٍ لا نراه،

وفي قلبه أسئلة لم تهدأ منذ ثلاثة أيام :

ماذا لو لم يكن الكون منتظمًا كما حسبناه ؟

ماذا لو كان هذا النيزك هو صخرة الحقيقة، التي نرمي بها نافذة وهمنا ؟

المدارات، بعد كل شيء، ليست يقينًا.

الاحتمالات، مهما صغرت، تظل بابًا مفتوحًا على المجهول.

وديفيد كان ممن يوقنون أن المجهول... لا يلعب النرد، بل يسقط فجأة، بلا إنذار.

من خلف الشاشات، بدا كل شيء على ما يرام.

المدن مشغولة بضرائبها، بأسعار الوقود، بشائعات المشاهير.

الحكومات تهمس فيما بينها :

(لا داعي للذعر، لا نريد تكرار سيناريوات الخوف الجماعي)

لكن البروفيسور ديفيد لم يكن يخشى الذعر. كان يخشى اللامبالاة.

أن نعرف... ثم نصمت.

أن نرى الخطر... ثم ننظر إلى جهة أخرى.

و في مساءٍ لم يكن عاديًا، خرج ديفيد عن صمته.

أطلّ في بث حيّ، عبر منصة علمية مستقلة، لا ترضخ للمموّلين ولا ترجو الدبلوماسية.

ظهر بوجهه المليء بالتجاعيد، ونظرته التي تشبه من رأى الجحيم ولم يدخله بعد.

قال :

(ثمة نيزك في طريقه إلينا.

ربما يمرّ بجوارنا ... ربما لا.

لكنني لا أستطيع أن أغمض عينيّ،

ولا أستطيع أن أغفر لنفسي إن لم أُخبركم بأن الأسوأ ممكن ..)

ثم صمت قليلًا، وأضاف :

(أحيانًا لا نُعطى فرصة لتوديع العالم...

لكنني أؤمن أن المعرفة حق.

وإذا كانت هذه نهاية محتملة...

فلتكن على الأقل نهاية واعية.)

انتشر الفيديو كالنار.

الناس انقسموا كعادتهم :

– بين مؤمن يجهّز القبو.

– ومكذّب يسخر.

– وغافل يواصل تصفّح هاتفه.

لكن السماء لم تسخر..

ولم تُكذّب ..

ولم تُجب ..

كانت تواصل دورانها...

ومعها ذلك النيزك،

يقترب...

بخطى لا تُسمع ..

لكنها، كما يعلم ديفيد... قد تكون آخر الخطى.

في الليل، جلس البروفيسور وحيدًا. لا ليحسب الزوايا، ولا ليراقب الشاشات، بل ليستمع إلى الصمت. ذلك الصمت القديم، الذي يلفّ الكون منذ أن وُلد.

أدرك في تلك اللحظة أن الخوف لا يكمن في **الارتطام**، بل في **الاحتمال**. في أن نكون قاب قوسين أو أدنى من الزوال... دون أن نعرف أو نكترث ..

فكر في الأطفال النائمين بطمأنينة في أسرتهم ..

في العشاق الذين يتشاجرون على رسائل قديمة ..

في الفقراء الذين يحلمون بلقمة ..

في الأغنياء الذين يتصارعون على شركات عابرة...

الجميع يظن أن الغد مضمون.

لكن الحقيقة، كما يعرفها عالم عجوز على أعتاب الليل، هي أن الغد... قد لا يأتي.

البروفيسور لم يطلب من الناس أن يخافوا، بل أن يصمتوا للحظة،

ويسمعوا ما تقوله الأجرام ، حتى حين تمرّ بجانبنا دون أن تصطدم.

قال لنفسه :

(النهاية الحقيقية ليست أن نُباد...

بل أن نعيش كأننا خالدون... بينما يد القدر تمرّ فوق رؤوسنا، صامتة، رقيقة، لكنها قادرة على كل شيء.)

*****

نيزك القيامة ..

جاء تقرير وكالة ناسا الرسمي ليوضح الالتباس و يطمئن الأفئدة ، بسيطًا في عباراته، مقتضبًا كما تقضي أعراف العلماء :

(نيزك ضخم سيمرّ بجوار الأرض بعد عامين.)

جملة واحدة، لا صخب فيها ولا تهويل.

سطر بارد وسط ملايين البيانات اليومية، و التقارير المتكررة ..

لكنّه، هذه المرة، لم يمرّ مرورًا عاديًا.

كان أوان التهدئة قد فات ، و الأرض لم تكن جاهزة لسماع الأخبار كرقم إحصائي.

فمنذ ثلاثة أشهر فقط ، استيقظ الكوكب على مشهدٍ لا يزال يرتجف في الذاكرة الجمعية :

انحسار نهر الفرات عن تلال الذهب.

المجزرة، الفوضى، البكاء في الجنوب، والهمس الذي دار حول موائد العشاء :

(قال تبي الرحمة أن هذه من علامات الساعة...)

وحين اجتمعت النبوءة بالملاحظة ..

والرمز بالحساب ..

والفزع بالعلم...

لم يعد تقرير ناسا مجرد خبر ..

بل صار بوقًا للأبوكاليبس ..

صفارة البداية للعدّ التنازلي ..

الناس لم يسمعوا الجملة كما قيلت، بل كما أراد خوفهم أن يسمعها :

(نيزك القيامة قادم... ولن ينجو أحد)

المدن تغيّرت.

الأسواق بدأت تسأل عن ملاجئ نووية.

صفوف جديدة تشكّلت أمام الكنائس والمساجد والمعابد.

شركات الأدوية لاحظت زيادة طلب على المهدئات،

وعلى النقيض حجوزات الرحلات السياحية ارتفعت بشكل غريب،

كأن الناس يريدون أن يروا العالم مرة أخيرة... قبل أن يُمحى.

الخبر انتشر كعدوى، لكن الفيروس لم يكن في الهواء، بل في

الوعي.

كل من قرأ التقرير لم يره كما هو، بل فسره على ضوء ثقافته، خرافاته، ذكرياته القديمة عن نهاية العالم.

البعض تذكّر الطوفان.

البعض رأى في النيزك تجليًّا لغضب الآلهة.

البعض آمن أن هذه هي الصيحة ، الرجفة ، أو النفخة الأولى في البوق ..

أغلبهم لم ينتظر تأكيد العلماء، لأن الخوف، حين يتلبّسك، لا يحتاج برهانًا.

كما أن كلام البروفيسور ديفيد العاري كالحقيقة أتى كصفعة على الوجوه ..

و كما يقال :

(الأفضل أن تصفع بالحقيقة بدلاً من أن تقبلك كذبة ..)

لذا سرعان ما أصبح الترند على مواقع التواصل الاجتماعي و في الصحافة الشعبية :

(نيزك القيامة)

اسمٌ واحد... كفيل بأن يحرق في داخلك ألف منطق. كفيل بأن يجعل الطفل يسأل :

(هل سنموت كلنا ؟)

وأن تنظر الأم إلى السماء، لا لتسأل... بل لتعتذر.

في الأزقة، في المدارس، في المقاهي، لم يكن الحديث عن أي شيء سوى هذا :

(هل هي النهاية ؟)

حتى من لا يؤمنون بالنبوءات بدؤوا يسترجعون ما سمعوه في طفولتهم عن آلية نهاية العالم ..

عن صخرة من السماء تسحق الأرض كما قالت المايا ..

عن بحر يغلي ..

عن شمس تختفي ..

عن زلزلة للأرض لا تقوم بعده قائمة .

في تلك اللحظات، لم يعد العلم يهمّ كثيرًا، ولا الأرقام، و لا احتمالات البقاء.

الناس لم تبحث عن حقيقة النيزك، بل عمّا يمكن فعله في الوقت المتبقي كمنجاة و تملص أو صلاة و توبة .

وفي أعماق العواصم الصامتة ، كان الزعماء ينظرون إلى السماء دون أن يملكوا ما يقولونه.

لا قنابل تردّ ..

ولا معاهدات توقف الكارثة.

لأن هذه المرة ..

العدوّ ليس من الأرض ..

بل آتٍ من فوق ..

من النسيج الغامض الذي يحيط بحياتنا... ثم ننساه حتى يصدمنا.

وهكذا،

تحوّلت الأرض كلها إلى صدرٍ واحد، يحبس أنفاسه في انتظار نيزك... قد يسقط، أو لا يسقط،

لكنه أسقط شيئًا آخر للتو :

ثقة الإنسان بأنه سيستيقظ غدًا.

*****

ديجافو ..

لم يمض وقت طويل على صدور تقرير ناسا عن نيزك القيامة ،حتى امتلأت مواقع التواصل وصفحات الأخبار بعبارة واحدة تتكرر بتوتر خفي :

(لقد حدث هذا من قبل ...)

وسرعان ما بدأ الناس يستعيدون من خزائن التاريخ كابوسًا مدفونًا:

كارثة **تشيكسولوب.**

ذلك النيزك الهائل الذي سقط منذ **66** مليون سنة في **شبه جزيرة يوكاتان في المكسيك** ، بقطر لا يتجاوز عشرة كيلومترات... لكنه كان كافيًا لمسح حضارة طبيعية كاملة.

الديناصورات... تلك المخلوقات التي سادت الأرض لقرابة مئتي مليون عام، اختفت في لحظة، لا لأن كائنًا آخر أقوى ظهر، بل لأن حجرًا واحدًا، نازلًا من سديم، قرر أن يختتم الفصل الأخير من الرواية.

الناس لا يتذكرون عادةً كيف تنتهي الأشياء، لكنهم يتذكرون دائمًا

الخوف من التكرار.

وهكذا، صارت فوهة تشيكسولوب تتوهّج مجددًا، لا في الأرض، بل في خيال الإنسان.

كانت المأساة يومها ليست في الاصطدام وحده، بل في ما أعقب الاصطدام.

تخيّل كوكبًا كاملاً تكسوه سحب الرماد والغبار الناعم.

الشمس، تلك التي تمثل الحياة ذاتها، غابت خلف ستار رمادي لا يخترقه الضوء.

و بحسب التقارير التي تناقلها الإعلام، فإن الغبار الناتج عن سحق الصخور ارتفع إلى الغلاف الجوي، وشكّل طبقة كثيفة عكست أشعة الشمس بعيدًا عن الأرض.

برد المناخ، وتحوّلت الفصول إلى شتاء أبديّ.

لم تكن كارثة فيزيائية فحسب، بل مجزرة بطيئة للنور.

فالتمثيل الضوئي، تلك العملية التي تشرب منها الحياة أولى أنفاسها، توقف تمامًا لمدة عامين.

النباتات ماتت.

العواشب اختفت جوعًا.

اللاحمات سقطت تباعًا كقطع دومينو.

وانهارت السلسلة الغذائية كما تسقط قلاع الرمل تحت أول موجة مدّ.

وما بدا في البداية حجرًا صغيرًا... تحوّل إلى كاهن مظلم يُقيم جنازة الحياة.

أمام هذا السرد الكوني الجليل،

بدأ الناس في كل أنحاء الكوكب يتساءلون :

(هل نحن في طريقنا إلى ذات المصير ؟ أولاً تلال الذهب ، ثم نيزك خطر في الأفق .. هل بدأ العد التنازلي بتوالي العلامات ؟)

و كانت الإجابة مخيفة في بساطتها :

لا أحد يعلم.

فالعِلم، رغم أدواته الدقيقة، لا يملك بعد تلك اللغة التي تتحدث بها السماء.

والتاريخ، رغم أنه مكتوب على صخور الأرض، يبقى قابلاً للتكرار.

لكن ما يجعل التهديد أشد وقعًا هذه المرة، أن الإنسان الآن يعلم : .نحن لسنا ديناصورات تجهل المصير حتى نهايتها، بل كائنات ترى المأساة قادمة... وتُحسّ بها.

فكرة أن حجرًا يسقط من الفضاء قد يُعيد نفس فصول الفناء التي محقت عصورًا بأكملها ، جعلت الناس ينظرون إلى السماء بخوف بدائيّ،

لكن هذه المرة... مسلّحين بالإنترنت والمعلومة.

ومع ذلك، لم يكن هذا السلاح كافيًا ليمنحهم الطمأنينة ، بل كان كمن يحمل مصباحًا يرى به حجم الظلام دون أن يقدر على تبديده.

لقد كان السؤال موحداً في القلوب جميعًا :

هل نحن الجيل الأخير؟

هل نيزك تشيكسولوب كانت فقط بروفة أولى لمسرحية تراجيدية شكسبيرية قادمة ؟

*****

محاولات احتواء يائسة ..

لم يكن النيزك الذي يتهادى في مجرّته هو الأخطر، بل كان الأخطر ذلك النيزك الذي اصطدم بالعقول.

كانت المعلومة وحدها، جافّة، باردة، خالية من العاطفة، كفيلة بأن تهدم ما بناه الإنسان من آمالٍ طوال قرون.

الخبر سقط كقنبلة لا يسمع صوتها، لكنها تهدم المدن من الداخل، وتترك الخرائط قائمة، لكنها خالية من النبض.

جاء **العلماء** أولًا ..

يرفعون الرسومات والمجسّمات ..

يتحدثون عن مسارات واحتمالات ونسب النجاة.

لكن اللغة العلمية، مهما بلغت من دقة ، لم تكن تملك ما يُسكِتُ القلب حين يسمع :

(بقي من الحياة أشهر معدودة.)

ثم جاء **السياسيون**،

كعادتهم، يبيعون الوهم بربطة عنق أنيقة.

يتحدثون عن خطط للطوارئ، وتحالفات دولية ..

ويُقسمون على أن الوضع تحت السيطرة ..
لكن الأرض كانت تسمع صوت النيزك...
أعلى من صوت برلماناتهم.

وأخيرًا جاء **رجال الدين،**
كلٌّ يحمل كتابه، وكلٌّ يقرأ النهايات كما يشتهي.
فمنهم من قال : إنها ساعة الحساب ..
ومنهم من قال : لن تحدث حتى تظهر علامات أخرى ..
ومنهم من صمت... فقد بلَغَ الخوف حلقه.

لم يُفلح أحد.
لا العلماء، ولا الساسة، ولا أهل العمائم.

لأن الحقيقة كانت قد اخترقت القشرة الصلبة للعقل البشري، و أحدثت فيه فُوَّهة تشيكسولوب نفسية.
النيزك لم يسحق اليابسة بعد، لكنه سحق شيئًا آخر أكثر ندرة : **الأمل.**

انقرض التفاؤل كما انقرضت الديناصورات.
صارت الأخبار اليومية أشبه بعروض مسرحية لا تثير سوى السخرية.
ماذا يهمّ سعر النفط إن كانت الأرض ذاتها ستُمسح ؟
ماذا تعني الانتخابات إن كانت الشمس على وشك أن تُطفأ في

السماء ؟

الناس لم يعد يعنيهم الوقت... بل ما تبقّى منه.

مذيعة النشرة الجوية كانت تبتسم :

(غدًا يوم مشمس في الشمال ..)

لكن أحدًا لم يرفع رأسه من على الهاتف ليرمق السماء ، لأن الغد لم يعد يعني شيئًا.

صار العدّ التنازلي خلفية يومية.

الكل يسمعه...

ولا أحد يجرؤ أن يغيّر القناة.

و لم يكن المشهد نهاية درامية كما تتخيلها الأفلام، بل كان موّتًا بطيئًا للمعنى.

المدن لم تُقصف.

الجيوش لم تتحرّك.

الأسواق ما زالت تبيع، لكن البائع يعرف أن الزبون لن يعود بعد أشهر.

كل شيء ظل قائمًا... لكن بلا روح.

بعض الناس لجأوا إلى العزلة.

آخرون غرقوا في حفلات طويلة، كأنهم يريدون أن يرقصوا على إيقاع الهاوية.

وهناك من جلس ببساطة على الشرفات، ينظر إلى السماء كل ليلة، كأنهم ينتظرون أن يروا أول لمعة من النيزك، مثل نصل قادم من السماء، ليمزق الغلاف الجوي ويدخل.

لكنّه لم يظهر بعد.

وهكذا، لم يبقَ من الحياة بحسب قناعة الجميع سوى بضع أشهر. لا يُعرف فيها ما سيحدث، لكن كلّ ما عُرف... أن كل شيء سينتهي.

والمثير للدهشة...

أن لا أحد عرف ما الذي ينبغي عليه فعله الآن ..

فالوقت حين يصبح قصيرًا، يتحوّل إلى هاوية سائلة... لا يمكن السباحة فيها، ولا حتى الغرق.

أكاد أخفيها..

مصر / الإسكندرية ..

2470 م ..

اسمه **منذر عبد الحي.**

ليس فقط طبيبًا مصريًا متخصصا في **علم التشريح المرضي،**

بل أشبه بكاشف أسرار دفين ..

رجل يُتقن قراءة الطلاسم التي تكتبها الأجساد بعد الموت، و يفكك رموزها كما يفك العالم شيفرات لغة قديمة.

لم يكن منذر طبيبًا تقليديًا يغوص في الأنسجة والخلايا لأجل تشخيص مرض، بل كان يرى في كل شق، في كل نسيج متآكل أو خلية ميتة، لغزًا صغيرًا من ألغاز الوجود.

كان يضع الشرائح المجهرية تحت العدسة، لا ليرى فقط، بل ليسأل :

لماذا ؟ كيف ؟

ومن الذي كتب هذا السيناريو الصامت داخل الجسد ؟

لكن جانبًا آخر من شخصيته ظل أكثر غموضًا، أكثر إلحاحًا في طرح الأسئلة :

شغفه الهائل بالقرآن الكريم.

لم يكن يتعامل معه ككتاب تعبدي أو مرجعية فقهية فقط، بل اعتبره منذر أطلسًا غامضًا للكون، مليئًا بالأحاجي الرمزية، والشيفرات اللسانية، والدلالات العلمية المضمرة.

كان يراه كتابًا من الضوء والطين في آن، كتابًا يتقاطع مع الكون في كل ذرة، وكلما تعمّق فيه، ازداد يقينًا أن القرآن لا يبوح بأسراره لمن يقرأه بعين العادة، بل لمن يقرأه بعدسة الباحث عن السر تحت مجهر الحقيقة ..

أصدر عشرات المؤلفات التي تبحر في رمزية الآيات، وفي الصلة بين اللغة القرآنية والتكوين البشري والمجري الكوني ..

لكنّ محاضرته القادمة التي ينوي إلقاءها لم تكن كأي من كتبه… كانت محاضرته الأهم ، الأخطر و ربما إن صدقت سطورها ، محاضرته الأخيرة ..

*****

العشاء الأخير ..

في صباح يوم الخميس المنتظر، اجتمعت العيون المتوترة والقلوب المتسائلة داخل قاعة كبرى في **جامعة عين شمس**، حيث سيقدم منذر عبد الحي أجرأ محاضرة في تاريخه، وربما في تاريخ الجامعة ذاتها.

عنوانها وحده كان كافيًا ليُشعل فتيل الترقّب :

(هل يمكننا التنبؤ بموعد يوم القيامة ؟)

عنوان ليس مجرّد سؤال، بل قنبلة فكرية في زمن يغلي بالسؤال نفسه.

فعلى سطح الكوكب كانت الأحداث تتلاحق بلا رحمة :

– انحسار نهر الفرات عن تلال من الذهب،

– الاقتتال البشري على كنوز ظهرت من لا مكان،
– وظهور نيزك ضخم يسير بسرعة مجنونة نحو الأرض.

كان الناس في كل زاوية من الأرض يهمسون :

هل اقتربت النهاية ؟ هل هذه هي العلامات ؟ هل نعيش أيامنا الأخيرة ؟

و كان منذر موجودا هنا لا لشيء ، إلا كي يجيب على هذه الأسئلة بعيون العلم و الدين ..

كانت هذه المحاضرة، بهذا العنوان، كأنها صرخة في وسط دوّامة الأسئلة.

منذر لم يكن واعظًا ولا نبيًّا، لكنه اختار أن يسير في حقل ألغام روحيّ وعلميّ معًا، حقل تفجّرت فيه من قبل عقول، وانهارت فيه تيارات فكرية برمّتها.

الجمهور لم يكن فقط من الطلاب، بل ضمّ رجال دين، فلاسفة، إعلاميين، باحثين، وحتى مسؤولين رسميين.

كلهم جاؤوا ليشهدوا :

هل سيقترب أحد أخيرًا من هذا السؤال القديم كما لم يفعل أحد من قبل ؟

حين دخل منذر إلى القاعة، لم يكن متعجرفًا، ولا متوجسًا، كان هادئًا، كأنه قادم من تأملٍ طويل في مدافن الكلمات.

جلس منصتًا لتقديمه، والمُقدِّم يسرد إنجازاته ومؤلفاته بلغة مملوءة بالاحترام.

وما إن انتهى التصفيق، حتى نهض من مقعده بخطوات ثابتة، كأنه يمشي فوق صفحة التاريخ لا أرض القاعة.

صعد المنصة ..

ابتسم ..

ثم نظر إلى الوجوه المتراصة أمامه بعينٍ فيها حنان وقلق في آن.
و قال :

= شكرا اعزائي الحضور لتشريفي بتواجدكم .. موضوع نقاشنا اليوم حساس للغاية .. ليس لأن جوهره جريء و خطير فحسب ، بل لأننا نتساءل جميعا هذه الأيام : هل باتت أيامنا معدودة ؟

لا أدّعي اليوم أنني أملك نبوءة.

لكنني سأشارككم رحلة، بدأت من عدسة المجهر... وانتهت بين أسطر القرآن.

رحلة بحثت فيها لا عن نهاية الكون فحسب، بل عن خريطة النهاية كما رسمها النصّ الأعلى.

سكت لحظة، ثم أضاف بصوت خفيض :

= حين تنحسر الأنهار عن ذهب ..

وحين يظهر في السماء نيزك لا يستجيب للنداء...

فربما، فقط ربما ...

نحن لسنا في مصادفة ، بل في بروفة حقيقية لليوم الذي قيل لنا عنه منذ آلاف السنين.

ساد صمت مطبق في المكان ، لكن داخل كل عقل بدأت الساعة تدق و عقاربها تزحف إلى مستقرها الأخير ..

تابع الطبيب كلامه بهدوء يغلي بالتشويق :

= صلب حديثنا اليوم يتطرق إذن إلى يوم القيامة ، و على وجه أدق تحديد موعده ..

قد يظن كثيرون أن هذا تجديف أو تطاول على الذات الإلهية بالمساس بما يعتبر من أسرار الغيب ..

لكن في الحقيقة البارئ بنفسه أجاز لنا التفكير بهذا الموعد و محاولة تحديده بأنفسنا باستخدام العقل ، هبة الله المجانية و العظيمة لنا ، و ذلك في الآية القرآنية الصريحة :

(إنّ الساعة آتيةٌ أكاد أخفيها)

بمعنى أن هنالك إمكانية لمن يجتهد أن يحدد موعد الساعة أو **يوم القيامة أو النبأ العظيم أو الغاشية أو الحاقة** أو أيا كان اسمها و بدقة. لكن كيف يمكننا تحديد موعد رنين منبه الساعة الذي سيوقظنا جميعا من غفلتنا في هذه الحالة ؟

للقيام بذلك علينا التطرق أولا إلى فكرة غاية في الأهمية و هي **أيام الله** ، والتي تنطلق من آية قرآنية أخرى تقول :

(و إنّ يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدّون)

بمعنى واضح أن كل **1000** سنة بشرية على الأرض تعادل يوماً واحداً في الكون الأكبر .. بتعبير آخر مضى حتى الآن يومان إلهيان و نحن الآن في اليوم الثالث منذ ميلاد السيد المسيح أي **2470** سنة بشرية .. لكن كم يوماً إلهياً مضى منذ أبي البشر آدم حتى ولادة المسيح ؟

للإجابة على هذا السؤال بدوره سنستعين **بتسلسل آشر الزمني** .. و هو تحديد تقريبي للمدة الزمنية بين آدم و المسيح وضع في القرن

17 من قبل **جيمس أشر** رئيس أساقفة كل إيرلندا ، **أي** منذ قرون بعيدة خلت ، عبر قراءة دقيقة و مدروسة للعهد القديم و أعمار الأنبياء فيه .. حيث توصل آشر إلى أن الفترة الزمنية بين آدم و يسوع هي تقريباً **4000** سنة أرضية أي **4** أيام إلهية بناءً على تلك الأعمار .. بمعنى آخر مضى على البشر منذ أدم حتى اللحظة **6** أيام إلهية كاملة و نحن الآن في اليوم السابع .. واضح ؟!

= الحضور بصوت واحد : بالطبع ..

= ننتقل الآن إلى السؤال الآخر الهام في حديثنا ، كم تبلغ المدة الزمنية منذ آدم و حتى قيام الساعة ؟!

و الجواب ببساطة هي **أسبوع إلهي** ..

قد يسأل أحدكم : و ما الدليل على ذلك أيها الطبيب ؟ ..

و هذا سؤال هام يا أعزائي .. و الأدلة عليه في الحقيقة ذات نوعين .. أدلة علمية و أخرى دينية ..

الأدلة العلمية كما تتوقعون قليلة و غير دامغة ، و هذا طبيعي لأنه لو كان بإمكان البشر تحديد مدة الحياة البشرية بدقة سيتمكون من تحديد موعد رنين منبه الساعة بدقة أيضاً و بالتالي فإن الله لا يكاد يخفيها في هذه الحالة بل يظهرها للعلن بدون شك .. لذا لا وجود لأي وسيلة علمية حاسمة حتى الآن لتقدير الفترة الزمنية منذ بدء التكليف الإلهي مع سيدنا آدم حتى قيام الساعة و لن يكون حتى في المستقبل .. فهي حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله و بالتالي لا يمكن التكهن بها إلا بالاعتماد على كلامه المنزل في الكتب السماوية أو بكلام رسله و أنبيائه المعصومين برسالتهم الذين ينهلون مباشرة من النبع الإلهي ، فالعلم ربما يخبرنا بسهولة أن أقدم كائن بشري مشى على قدمين بوجه مسطح هو **هيكل لوسي العظمي** الذي اكتشف شمال شرق أثيوبيا عام **1974** و الذي يعود لأكثر من **3**

ملايين عام، لكنه هيكل يعود لكائن بدائي صنيعة التطور و غير مكلف ، أما منذ متى هبط آدم من الجنة إلى الأرض أو كم تبقى للحياة البشرية على الأرض من وقت فموضوع آخر يصعب التكّهن به علمياً !

لا أدلة علمية إذاً ؟! ..

بلى توجد أدلة علمية لكنها توحي بموعد قيام الساعة و لا تؤكده ..

إذ يمكن تقسيم الأدلة العلمية إلى **3** أقسام .. الأول هو **تطور العلم و التكنولوجيا عبر متوالية هندسية** ، و المتوالية الهندسية رياضياً هي متوالية تتسع بشكل متسارع ،على سبيل المثال .. **2** ، **4** ، **16** ، **256** ، **65536** ... و هو حال التطور العلمي للبشرية بالفعل دون أن ننكر أن بعض الحضارات القديمة بلغت مبلغاً هاماً من العلم لا نزال نجهله حتى اليوم .. و لتوضيح هذا المفهوم تعالوا نقارب هذا التطور بالتواريخ .. فمثلاً الثورة العلمية بدأت منذ زمن قريب نسبياً في القرن **17** و الثورة الصناعية في القرن **18** و الثورة التكنولوجية في القرن **20** و علوم الفلك و الفضاء في أوائل الألفية الجديدة ، و الذكاء الاصطناعي و الواقع الافتراضي بعد ذلك بقليل .. أي أن العلم الحديث كما نعرفه اليوم ولد منذ ستة إلى سبعة قرون لا أكثر و كأنه كان في حالة سبات لآلاف السنين ثم بدأ يستيقظ منها تدريجيا ليهرول مسرعاً على درب التطور!

ما علاقة ذلك بموعد قيام الساعة ؟!

في الحقيقة هي علاقة وثيقة للغاية ، فتطور العلم منذ بدء الخليقة و حتى اليوم ينحو منحاً شبيهاً بمتوالية هندسية تتسع بتسارع رهيب .. مما يمكننا من التكهن ببساطة أن أسرار العلوم الواسعة و الكون الشاسع تكشفت لنا خلال فترة وجيزة خلت .. مما يعني أيضاً من

زاوية أخرى أن ما تبقى من عمر البشرية ليس بكثير فقد تم اكتشافنا للعلوم و الكون برسم خارطة رباعية الأبعاد له ..

ننتقل إلى القسم الثاني هو **التطور الهائل على الصعيد العسكري** و اختراع أسلحة دمار شامل كفيلة بإنهاء البشرية في غمضة عين كالأسلحة النووية و الهيدروجينية و البيولوجية و غيرها كثير أخطر و أكثر فتكاً ، مما يعيد إلى الأذهان فكرة معركة الرب الكبرى و الأخيرة (**هرمجدون**) في نهاية الحياة و التي ستفني أغلب البشرية كما أخبرتنا بعض النصوص الدينية القديمة غير المؤكدة .. فما كان مجرد أساطير و تكهنات خيالية غير قابلة للتنفيذ على أرض الواقع منذ قرون ، بات أمراً قابل الحدوث بسهولة ..

و لا أخفيكم القول ، هذا كلام منطقي و مخيف في آنٍ معاً ..

يتبقى لدينا القسم الثالث الأخير و هو **ذو علاقة بالطبيعة** و نتحدث هنا عن ثقب الأوزون الخطير و التقلبات المناخية الحادة التي و بحسب توقعات العلماء خلال القرون المنصرمة ستؤدي خلال وقت قصير قياسي إلى ذوبان الجبال الجليدية في القطبين و ارتفاع منسوب مياه المحيطات لتذهب بدول كاملة ، أو العودة بالأرض إلى عصر جليدي جديد يسبب زوال قارات بكاملها .. صحيح أن البشر تمكنوا من تلافي هذه الكارثة منذ ثلاثة قرون ، لكن كل شيء وارد الحدوث نظرياً ..

و خلاصة ما سبق أن الحياة البشرية تبعاً لهذه الأدلة العلمية الثلاثة أوشكت على نهايتها ؟!

صمت الطبيب منذر قليلاً ثم أردف :

= ننتقل الآن إلى **الزاوية الدينية** في حديثنا التي تتناول مدة الحياة البشرية منذ التكليف البشري مع آدم أبي البشر و حتى قيام الساعة

في الحقيقة هنالك هنالك نصوص دينية كثيرة حددتها ..

فلدينا مثلاً حديث منسوب لنبي الرحمة يقول :

(الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، سبعة آلاف سنة)

و في هذا الحديث إشارة صريحة لفترة الحياة البشرية كما نتوقعها و تنسجم و تتلاءم مع ما سبق من أدلة علمية .. ففلا يخفى على أحدٍ منا ، أنه كان بإمكان الحديث أن يشير إلى أي فترة زمنية أخرى أو ألا يشير إليها من الأساس ، لا سيما بغياب أي أحاديث أخرى تشير إلى خلاف ذلك !! صحيح أن الأحاديث النبوية ليست كلاماً منزلاً إذ تم تدوينها في القرن الثالث الهجري فحذف منها ما حذف و أضيف إليها ما أضيف و تم فهم الكثير منها بشكل خاطئ و الأخطر تلاعبت بها أصابع شيطانية من حكام و كهنة كالعادة لتكريس مصالحهم الشخصية .. لكن هذا الحديث يتقاطع مع بقية الأدلة السابقة و اللاحقة التي نتحدث عنها على نحوٍ مثالي ، كما أنه لا وجود لأحاديث أخرى تناقضه في هذا الصدد ..

و هنالك حديث آخر منسوب للرسول محمد يقول :

(بعثت أنا و الساعة كهاتين)

رفع الطبيب إصبعين في يده و قال ..

= حيث أشار إلى إصبعين متجاورين في يده في إشارة واضحة منه إلى أن قيام الساعة ليس ببعيد عن بعثته .. ! فمحمد رسول الإسلام هو خاتم الأنبياء و المرسلين ، و بالفعل ما من أحدٍ بعده ادعى النبوة ببراهين دامغة ، و هذا بحد ذاته إشارة سماوية إلى أن ما تبقى من حياة البشر ليس بكثير و إلا كان من البديهي أن يستمر إرسال الأنبياء كحاجة و ضرورة ملحة في حال كان أمام البشرية متسع من الوقت قبل القيامة ، صحيح ؟

= الحضور بحماسة و ترقب : بلا شك !!

= ننتقل إلى الدليل الثالث الهام و الأخير في حديثنا و هو عبارة تنسب للرسول أيضاً و إن كان البعض ينسبها لغيره و تقول ..

(تؤلف و لا تؤلفان)

و هنالك دراسات هامة بلا شك أشارت إلى أن هذه المقولة تشير إلى التاريخ الهجري الذي تجاوز ألف سنة بالفعل و تقول أنه لن يؤلف ثانيةً ،أي أن الحياة ستنتهي في اليوم الإلهي السابع الأخير في الدنيا و الذي نعيشه الآن كما توقعت بقية الأدلة العلمية و الدينية بالضبط !!

هي مقولة غريبة لكنني أراها مناسبة على نحوٍ مثالي !!

يتبقى لدينا موضوع أخير في هذا الصدد و هو **اليوم ِالآخر** الذي ذكر في مناسبات كثيرة في القرآن الكريم و يقصد به الحياة بعد الموت ، أي اليوم الإلهي الثامن في الكون الأكبر و الذي يتلو أيام الحياة الدنيا الإلهية السبعة ، و يمكننا ببساطة أن نلاحظ أن رقم **8** يشير إلى رمز اللانهاية الأبدي الذي لا ينتهي و لا أيام بعده ، أي اليوم ِالآخر بالفعل ! كما قال تعالى في قرآنه الكريم :

(البرّ من آمن بالله و اليوم الآخر)

مما يعزز بدوره فكرة أن مدة الحياة البشرية منذ تكليف آدم و حتى قيام الساعة هو **7** أيام إلهية لا أكثر ..

يبقى لدينا السؤال الأهم و هو صلب محاضرتنا اليوم : متى ستقوم الساعة في اليوم الإلهي السابع الذي نعيشه حالياً ؟ متى سيرن منبه ساعة القيامة لتستيقظ الأجساد السماوية في الكون الأكبر معاً في لحظة واحدة ..

و للقيام بذلك سنتطرق إلى موضوع جديد في حديثنا ، شيق و هام للغاية ، و هو **النسبة الرياضية الإلهية المقدسة** .. أو ما يعرف **بالنسبة الذهبية فاي** .. و التي يقال أنّ الكون برمته مخلوق على أساسها ، و أينما وجدت وجد الكمال ، السحر و الإتقان .. فهي تحكم كل شيء من الذرة إلى المجرة ، فنجدها في عالم النبات و الحيوان و الجسد البشري و الهياكل الأثرية و التحف و الأعمال الفنية و غيرها ..

ابتسم الطبيب منذر و ضغط الجهاز في يده فظهرت على الشاشة العملاقة خلفه صورة رياضية ..

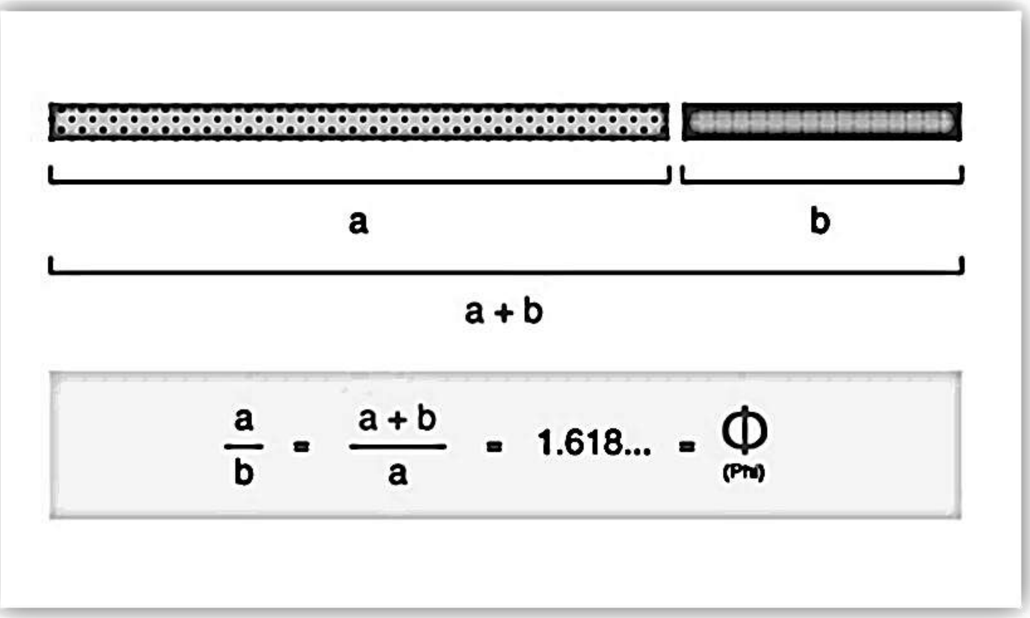

= النسبة الإلهية فاي كما يعرف بعضكم هي ثابت رياضي تعادل قيمته تقريباً **1.618** .. نحصل عليه كما هو واضح في الصورة أمامكم بتقسيم قطعة مستقيمة إلى قسمين **A** و **B** بحيث تكون نسبة الطول الكلي : **A + B** إلى طول القطعة الأطول **A** مساوياً لنسبة طول القطعة الأطول **A** إلى طول القطعة الأقصر **B** .. واضح ؟

= الحضور : واضح جداً ..

ضغط الطبيب الزر ثانية فظهرت صورة رياضية جديدة ..

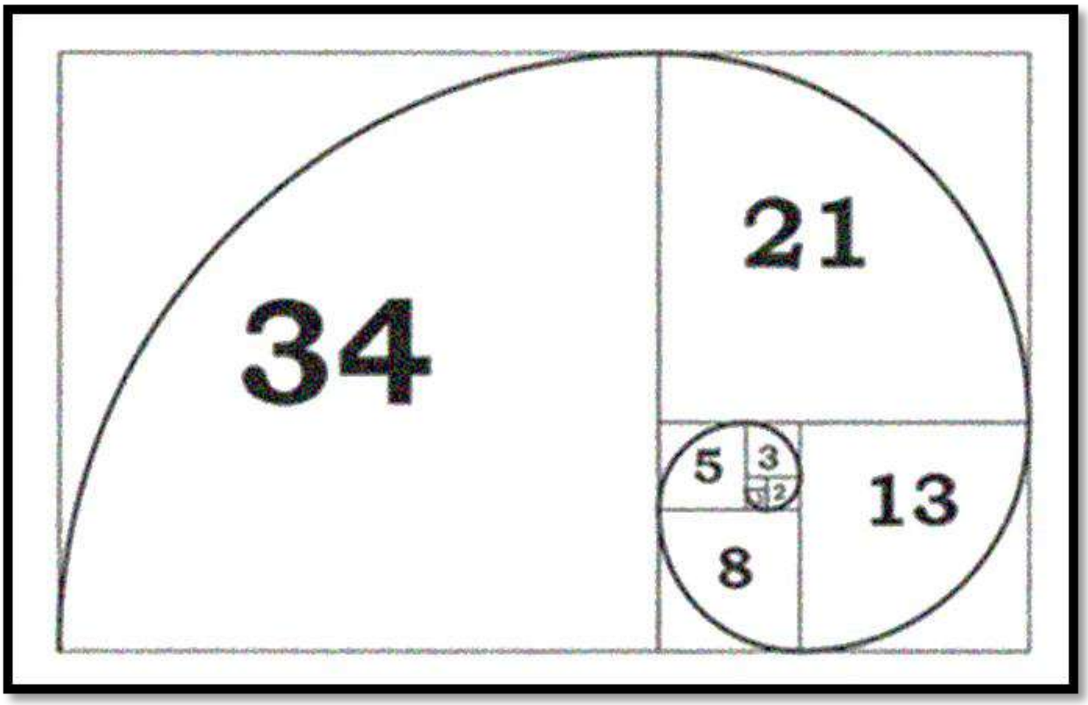

= و عادةّ ما يتم تجسيد هذه النسبة المقّدسة بطرقتين شهيرتين : الأولى هي **المستطيل الذهبي** الظاهر على الشاشة ، الذي يقسم إلى مربع مع مستطيل ذهبي آخر الذي يقسم بدوره إلى مربع آخر مع مستطيل ذهبي جديد و هكذا بحيث تكون النسبة بين هذه الأشكال الهندسية المتتالية هي فاي .. أما الطريقة الثانية فهي **متوالية فيبوناتشي الرياضية** ، و هي عبارة عن سلسلة من تتابع أرقام مرتبة بحيث يكون كل رقم فيها هو نتيجة جمع الرقمين السابقين **(0 ، 1 ، 1 ،2 ،3 ،5 ،8 ،13 ، 21 ...**) .. و قد وضعها عالم الرياضيات الإيطالي **ليوناردو فيبوناتشي** في القرن **13** و هو نفس العالم الذي أدخل الأرقام العربية إلى الثقافة اللاتينية و ما تزال مستخدمة في الغرب حتى اليوم و تعرف خطأ بأنها الأرقام الأجنبية ، أما الغريب في هذه المتوالية أن قسمة كل رقم فيها على

الرقم الذي يسبقه هو النسبة فاي دائماً ، مثلاً **8** تقسيم **5** يساوي **1.618** .. وهكذا ..

صمت الطبيب للحظات و شرب قليلاً من كأس الماء أمامه ثم أردف بابتسامة :

= أسمع كثيرين منكم يتهامسون بدهشة : لكن ما علاقة هذه النسبة بموعد القيامة ؟!

بالطبع هذا هو السؤال الأهم ، و كي نجيب عليه علينا أن نفكر قليلاً خارج الصندوق .. لنعد قليلاً إلى القطعة المستقيمة التي تحدثنا عنها في صورة سابقة ، فإذا افترضنا بأنّ المدة الزمنية بين آدم و قيام الساعة هو كقطعة مستقيمة تقيس **X** و آمنا بأنّ ميلاد السيد المسيح هام لأنه يأتي في نقطة من هذه القطعة تحقق النسبة الذهبية فاي ، فيمكننا بحسبة بسيطة أن نستنتج كم عدد السنوات من ميلاد السيد المسيح إلى قيام الساعة و الذي يحسب عن طريق تحديد قيمة **X** حيث تساوي حاصل ضرب الرقم **4000** بالرقم **1.618** وذلك يساوي **6472** سنة ..

لأن نسبة طول القطعة الكلية **X** و هو عمر الحياة البشرية على طول القطعة الكبرى منها و هو الفترة من آدم إلى السيد المسيح أي **4000** سنة بحسب تسلسل آشر الزمني يساوي النسبة الذهبية فاي **1.618** كما افترضنا ، و هذا ينسجم مع ما توصلنا إليه في حديثنا السابق بأننا الآن في اليوم الإلهي السابع من نزول آدم إلى الأرض و بأن الحياة الدنيا جمعة من جمع الآخرة حوالي **7000** سنة أرضية .. و بالتالي يكون تاريخ قيام الساعة المقّدر هو **6472 – 4000 = 2472** من ميلاد السيد المسيح ، أي أن

السنة الهجرية ستولف و لن تؤلف ثانية بالفعل ..!!

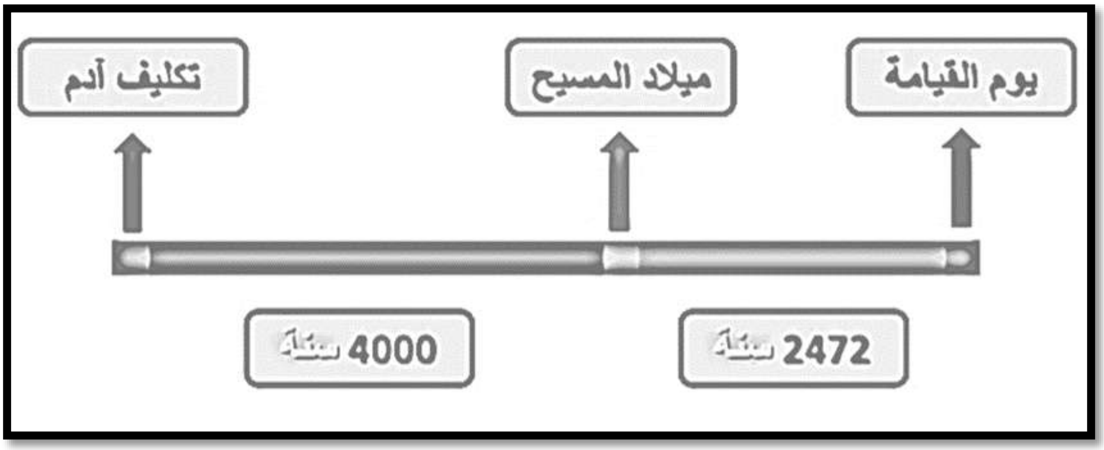

نظر الحضور إلى بعضهما بذهول ، قلق و رعب ، هذا الموعد المنطقي رياضياً و دينياً يتلاءم تماماً مع الأحداث التي جرت مؤخراً حول العالم !! ..

إنه كلام مذهل و منطقي و خطير .. فالنسبة فاي التي تحكم كل شيء ، لا عجب أن تحكم فترة الحياة البشرية بحد ذاتها !!

في حين ختم الطبيب محاضرته بكلام أخير ..

= و كما ترون ، الموعد الذي توصلنا إليه يتماهى بقوة مع مجريات الأحداث العالمية الراهنة ، لا أنكر أنه كلام مخيف ، لكن الحقيقة يجب أن تبصر النور و لو آلمت ضمائرنا .. أمامنا عامان فقط قبل أن ينتهي كل شيء !!

في الختام ، ما سبق و شرحته هو مجرد اجتهاد نابع من تكليف إلهي قرآني كما صرحت الآية التي ذكرناها في بداية محاضرتنا .. و سواء كان الاجتهاد مصيباً أم لا ، فعلى البشر أن يستغلوا كل ثانية من حياتهم في **صلاح الأفكار و الأقوال و الأعمال** كي يلاقوا ربهم بضمير مرتاح فلا يخجلوا من نشر كتابهم الذي يتناول حياة أجسادهم الأرضية على الملأ ..

فما أدرانا ربما كانت الساعة أقرب إلينا من ظلنا بالفعل ؟ لا يسعنا

سوى الانتظار و الترقب إلامَ ستؤول إليه فصول المسرحية التي بتنا نعيشها مكرهين منذ أشهر ..

أشكركم مجدداً على تشريفي بحضوركم و أتمنى لكم يوماً هانئاً و لو كان سرقة وسط ما نعيشه من أهوال ..

لم يكد الدكتور **منذر عبد الحي** ينهي جملته الأخيرة في المحاضرة، حتى خيّم على القاعة صمتٌ غير مألوف...

ليس صمت الخشوع، ولا صمت الاحترام، بل هو صمتُ أولئك الذين سمعوا شيئًا لن يخرج من رؤوسهم بسهولة.

لقد قالها بكل وضوح :

أمامنا عامان فقط قبل النهاية ..

لم يصرخ، لم يتوعّد، لم يلوّح بسيف الغيب، بل نطق بها كما ينطق الطبيب بخبر إصابة مريض بورم خبيث...

صوت متزن، هادئ، لكنه يغوص في العظم.

*****

كالنار في الهشيم ..

في الزوايا، بدأت الهواتف تسجّل. بعضها خفية، وبعضها جهرًا. كأن الجميع شعر، رغم رهبة المقام، أن ما قيل في تلك القاعة ينبغي أن يُسمع... أن يهرب من الجدران... أن ينتشر مثل برقٍ

في عاصفة.

وما هي إلا ساعات حتى بدأت المقاطع تُقص وتُنسخ وتُرسل،

من هاتفٍ إلى آخر ..

من طالب إلى أمّه ..

من موظف في شركة إلى مجموعة واتساب عائلية في أقصى الريف ..

عبر نظارات الواقع الافتراضي ..

كلامٌ لا يُشاهد من باب الفضول، بل يُشاهد كما يترقب الناس عقارب الساعة قبل أن يرن جرسها ..

خلال أيام قليلة،

بدأت الترجمة تنهمر كالمطر على مقطع محاضرة الطبيب المصري.

– نسخة **فرنسية** تنقل صوته بلهجة غريبة لكنها تحتفظ بجمر النبوءة.

– نسخة **إسبانية** ترافقها موسيقى كئيبة، انتشرت بين الشباب كأنها أغنية نهاية.

– حتى **اليابانيون**، الذين لا يؤمنون عادة بالخلاص الديني،

راحوا يتداولون المقطع تحت وسم :

「最後の２年」

العامان الأخيران

الصحف العالمية بدأت تتعامل مع الأمر بجدية محرجة :

– هل نحن أمام مجنون جديد ؟

– أم أن العلم والدين قد التقيا أخيرًا في جملة واحدة ؟

لكن (السوشيال ميديا) لم تنتظر تأكيدًا ولا تكذيبًا. أصبح الفيديو خلال أيام (ترندًا) لا يمكن إيقافه، ومحتواه يتغلغل في كل العقول كما يتغلغل الخوف في طفلٍ يسمع أول مرة عن الموت.

الناس لم يعودوا يتناقشون فيما إذا كان كلام الطبيب صحيحًا أو خاطئًا، بل كيف يجب أن يتصرفوا إن كان... صحيحًا فعلاً.

في الفيديو المتداول، بدا منذر ثابتًا في وقفته، عيناه لا تهربان من الكاميرا، وصوته لا يرتجف.

قال ما يشبه الهمس، لكنه هزّ مدنًا بأكملها :

أمامنا عامان فقط...

عامان قبل أن يقف كلّ واحد منكم في حضرة البارئ، وكتابه منشور أمامه، صفحةً صفحة، جملةً جملة، فكيف تودّ أن تكون خاتمتك ؟

لم يكن يُخيفهم، بل يُنذرهم. ولذلك... صدقوه.

المدن بدأت تُبطئ إيقاعها،

شركات أعلنت أيام عطلة للموظفين من باب الرفق ..

معدلات الانتحار انخفضت بشكل غريب،

لكنها ترافقت مع زيادة مرعبة في الزيارات للأطباء النفسيين .

بدأ الناس يسألون أنفسهم :

– ماذا كنت سأفعل لو علمت أن نهاية حياتي بعد عامين ؟

– هل أتصالح ؟ أعتذر ؟ أحبّ ؟ أعتزل ؟ أهرب ؟ أؤمن ؟ أرفض ؟

كان الجواب الوحيد الذي لا يقبل التأجيل هو :

لا وقت للندم لاحقًا.. ابدأ من الآن ..

وهكذا، تحوّلت محاضرة واحدة من طبيبٍ مولعٍ بالقرآن والتشريح و المجهر ، إلى صرخة روحية عالمية ، لا لتهديد الناس، بل لتذكيرهم أنهم... زائلون.

مخطوطة فوينيش

خريطة بيري ريس

و هرم إلسوورث

الأوروغواي / مونتفيديو ..

2471 م ..

كان المساء قد تهادى على المرفأ كما يتهادى الكهرمان على عنق حسناء ..

ألوان الغروب تنزلق ببطء فوق سطح البحر، تصبغ مياهه بدرجات النبيذ الغامق، فيما تنعكس أضواء المراكب على الموج كشظايا نجوم سقطت في الماء.

وفي قلب هذه اللوحة المتحركة، أطلّ يخت أبيض طويل أنيق، كطائر بحري عاد من رحلته الأسطورية، متعبًا لكن مكللًا بالمجد.

على ظهره، وقف **ميغيل**،

رجل في الستين،

لكن من نوعٍ لا تعد فيه السنوات، بل البحار التي عبرها.

وجهه مغطّى بطبقة رقيقة من الشمس والملح والحنين، كأن بخار المحيطات ما زال يطفو حوله حتى على اليابسة.

كانت يداه الخشنتان تشهدان على معارك مع الرياح، وعيناه، تلك العينان الرماديتان، تحملان في حدقتيهما خرائط دولٍ وقصص نساء ونبوءات قراصنة.

هو قبطان سابق، نعم، لكن قلبه لم يترجل يوماً عن ظهر البحر فاشترى يخته هذا كبوابة عبور دائمة إلى العالم المائي ..

حين لمح ملامح المنزل الخشبي المطلّ على الساحل، تنفس بعمق، وكأن الوطن لديه لم يكن أرضًا، بل عينا امرأة تنتظره هناك.

في فناء المنزل، وقفت زوجته **ماريانا،**

خمسينية أنيقة، بابتسامةٍ وُلدت من عمق الشوق لا من سطح الوجه،

وجهها ناعم كصفحة رواية قديمة تقرؤها على مهل، وفي عينيها بحرٌ خاص، ليس فيه أمواج بل أسرار.

حين اقترب ميغيل، فتحت ذراعيها كأنها تستقبل فصلًا طال انتظاره .

= زوجتي العزيزة...

قالها وهو ينزع قبعته البحرية ببطء،

= يبدو أنك تحملين في قلبك أخبارًا تكسر الروتين، وتداعب تلافيف الدماغ.

ضحكت ماريانا، لا كما تضحك النساء، بل كما تضحك العرافات قبل إلقاء نبوءة.

= أصبت.

= هاتِ ما عندكِ على الفور.

= لقد... فككتُ شفرتها.

= المخطوطة ؟

ارتفع حاجباه كقوسين من دهشة.

= هي بذاتها.

= لكن... كيف ؟ لقد أفنيتِ عمرًا في سبر أغوارها دون جدوى،

بل سبقك الآلاف إليها، على مدار قرون... حاولوا و فشلوا.

= إنه الذكاء الاصطناعي، عزيزي...

= لكنكِ لجأتِ إليه من قبل.!!

= هذا مختلف... موقع ياباني جديد متطور للغاية .. أدخلتُ إليه نسخة المخطوطة، وبلمسة واحدة فقط... جاءني الحل على طبق من فضة.

ميغيل، الذي قاوم عواصف مضيق ماجلان وسحب بحارة من فك الموت، شعر لوهلة بشيء يشبه الرهبة.

= هل... أنتِ متأكدة ؟

سألها بصوت خافت، كأن الكلمات نفسها تخاف أن تخرج.

= أكثر من أي وقت مضى .. تعال معي ..

سارت أمامه نحو غرفة المكتب و هو يتبعها كسفينة تلاحق الأفق.

الغرفة كانت نصفها مكتبة ونصفها مرصد. جدرانها مرصوفة بخرائط قديمة، وعلى رفوفها تبعثرت رسائل كُتبت بخط اليد، وعدسات مكبّرة، أما الأدراج فتخفي أشياءً غريبة : شظايا من سفينة غارقة، رماد من معبد مهجور، ريشة من طائر لا يُعرف اسمه.

وعلى الطاولة... كانت نسخة من المخطوطة. جلدية، داكنة، مشققة الأطراف. كتاباتها غير مفهومة، رسومها مبهمة، كأنها رسالة من حضارة ضائعة في زمنٍ لم يكن بعد زمناً.

فتحها ميغيل كما يفتح كاهن كتابه المقدس.

ماريانا وضعت بجانبه الجهاز اللوحي، وفيه... الترجمة.

جلس القبطان بصمتٍ ثقيل، وقد انحنى ظهره قليلًا كأن شيخوخة المحيطات قد عادت لتستقر بين كتفيه للحظة واحدة فقط. عينا البحّار الذي جاب أقاصي العالم في حياته تتأملان الفراغ، لكن داخله كان يضجّ بتسونامي ذاكرة قديمة.

لقد عرف تلك المخطوطة، **مخطوطة فوينيش** ، من زمن بعيد. فقد انكبت زوجته على تفسيرها لعقود طوال ..

كانت تظهر أحيانًا على هوامش الحديث في المؤتمرات ..

وتلوح كسراب في مجالس العلماء ..

كتابٌ يشبه الأحلام : ملموس... لكنه يفلت دائمًا من الحلّ ..

أعاد ترتيب ذكرياته عن المخطوطة كما لو أنه يُحرّك أشرعة ذهنية :

في أحد أركان **مكتبة بينيك بجامعة يال الأمريكية**، ترقد النسخة الأصلية من المخطوطة وحيدة، غامضة، مسكونة بهمهمات قرونٍ من الأسرار.

اسمها لا يشبه أسماء المخطوطات الأخرى من **مخطوطة غيغاس** إلى **مخطوطات قمران** ثم **مخطوطة حي بن يقظان** و غيرها ..

هي لا تُنسب إلى مؤلف، ولا إلى حضارة، ولا حتى إلى لغة

مفهومة، بل إلى رجلٍ بولندي اكتشفها مصادفة : **ويلفريد فوينيش**، تاجر كتب نادرة، الذي اشتراها عام **1912** من دير يسوعي قديم في إيطاليا، دون أن يدرك أنه أخرج من قبو التاريخ أكثر المخطوطات إرباكًا وغموضًا في العالم.

تتكون المخطوطة من نحو **272** صفحة، مكتوبة بخط يد أنيق،

مائل قليلًا، و بلغة مجهولة، أو بالأحرى، نظام رمزي لا يشبه أي لغة عرفتها البشرية. لا هي لاتينية، ولا عربية، ولا عبرية، ولا حتى من اللغات القديمة المندثرة.

وبالرغم من جهود مئات اللغويين والخبراء عبر أكثر من قرن، لم يتمكن أحد من فك شفرتها.

الخطوط رشيقة ومنمقة، تبدو كما لو أن كاتبها لم يكن يكتب، بل يرسم تعويذة، والحبر الذي سُطرت به الكلمات لا يزال محتفظًا بلونه الداكن، وكأن الزمن نسي أن يبهت سرّه.

تم فحص ورقها بالكربون المشع، فثبت أنها تعود إلى أوائل القرن الخامس عشر، و على وجه أكثر دقة ، بين عامي **1404** و **1438** ..

لكن لا شيء في محتواها يشي بعصرٍ محدد، فهي أقرب إلى السفر بين العصور، تارة تعود بك إلى عصور ما قبل العلم، وتارة تدخلك مختبرًا من المستقبل.

ما يجعل المخطوطة أكثر فتنة من أي نص قديم، ليس فقط رموزها الغريبة، بل رسوماتها التي تعجز المخيلة عن احتوائها.

في صفحاتها، تنتشر **رسوم لنباتات** لا تُشبه أي نباتٍ معروف، بعضها يبدو كأزهار، لكن جذورها تتشابك كما تتشابك أفكار الحالمين، وبعضها يحمل أوراقًا كأنها رقائق نجوم.

وهناك **رسوم لنساء عاريات**، لكنّهن لا يظهرن لإثارة الحس، بل لأداء طقوس مجهولة، يغطسن في أنابيب تشبه الأوعية الطبية، كأنهن نماذج في تجربة علمية من عصرٍ لم يأتِ بعد.

وفي أقسام أخرى،

تنتشر رسوم فلكية دقيقة ..

دوائر متداخلة، كواكب متقابلة ..

مدارات تلتف كأفاعٍ نائمة ..

لكن دون أسماء، ودون توقيت ..

كما لو أنها خرائط لعالمٍ موازٍ ..

أو كُتيّب إرشادات لمخلوقات لا نعرفها.

قسم آخر يحتوي على ما يشبه الوصفات ..

رموز وأرقام ..

لكن بدون وحدات أو لغة أو سياق.

هل هي كتاب علاجي ؟

هل هي مخطط علمي ؟

أم أنها رسالة من حضارة لم نعرفها بعد... وربما لن نعرفها أبدًا ؟

ظلّ السؤال الأكبر يحوم حولها :

هل كُتبت كأسرار لتكشف... أم كخدعة لتُربك ؟

ولماذا صمدت لقرون، متحدية العلماء، والمؤرخين، والمزيفين، دون أن تُفتح أبواب معناها ؟

هل كانت رسالة إلى المستقبل ؟

أم بقايا نبوءة لم يحن أوانها بعد ؟

رفع ميغيل عينيه نحو زوجته ماريانا، ورأى في وجهها ما لم تفصح عنه الكلمات بعد.

كانت تقف أمامه بكامل ثقتها، لا كزوجة فقط، بل كباحثة تُمسك بين يديها واحدة من أعظم لحظات حياتها العلمية.

ماريانا لم تكن امرأة عادية... هي ابنة **الأندلس** في روحها قبل دمها، وجهها بلون الغبار الخفيف الذي تتركه الشمس حين تُقبّل الجدران الحجرية لقصر الحمراء. وفي عينيها ظلُّ مكتباتٍ قديمة، حيث الأوراق الصفراء تهمس بأسرار ضائعة.

لم يكن الناس في بلادهم يفهمون مشاعرهم حين ينظرون إلى ملامحها، فهي غريبة... ليست أوروبية تمامًا، ولا عربية بالكامل، بل شيءٌ بينهما، كما لو أن الزمن نفسه بكامل حقبه مرّ بها وترك بصماته.

لوّحتها شمس الأندلس، لا تلك التي تغرب من السماء، بل شمس الحضارة التي غربت منذ قرون، وهاجرت إلى محياها فسكنت كقمر مكتمل هناك.

كانت عالمة في الآثار، لكن ليست كباقي علماء المتاحف الصامتين، بل عاشقة للمخطوطات الغامضة، تُصغي للورق كما يُصغي العاشق للأنين، وتقرأ الرموز كما يُقرأ الشعر.

ولطالما كانت مخطوطة فوينيش العجيبة هاجسها الأكبر، تجري خلفها كمن يبحث عن وطنٍ في الرمل، تحلل، تقارن، تستعين باللغويات، وبالتاريخ، وبالأساطير...

حتى جاء اليوم، حين زارها ذكاء اصطناعي ياباني متطور، موقع أشبه بمعبد رقمي، اصطدمت به صدفة ، أو ربما اصطدم بها عمداً كلمسة قدرية ..

أدخلت فيه نسخة من المخطوطة... فأجاب خلال ثوانٍ معدودات، بما عجز عنه الآلاف... عبر قرون.

نهض ميغيل واقفًا، كمن يستعدّ لعبور بوابة غير مرئية.. اقترب منها... من زوجته التي أحبّها مرتين، مرة لأنها زوجته، ومرة لأنها وقعت في حب المستحيل.

قال لها بصوتٍ يشبه خشب المرافئ القديمة :

= أريني يا ماريانا... أريني ماذا قال لكِ هذا الكيان الذكي عن الكتاب الذي حيّر العقول والنُساخ والعلماء على مرّ العصور.

أشارت إلى الشاشة، وجلست بجواره.

وبين سطور الترجمة، بدأت تتكشّف له حقيقة غير متوقعة :

أن هذا الكتاب ليس وصفًا لعالمٍ كان...

ولا لعالمٍ سيكون...

بل لعالمٍ موازٍ، يعيش بجانبنا، يرانا... ولا نراه.

عالم يحكمه علم مختلف، قوانينه الفيزيائية غير مألوفة، وتقويمه الزمني لا يشبه تقويم البشر.

أشارت إحدى الصفحات إلى **نقطة التقاء بين العوالم** ..

قالت ماريانا :

= ربما تكون بوابة... أو لحظة زمنية فريدة... أو حتى حدث كوني ..

و في صفحة أخرى تم الإشارة إلى نبوءة لا يفهمها إلا من رأى الصخرة الملتهبة تقترب من الأرض لتغرقها في الظلام ..

نظر ميغيل إليها، وكان البحر في قلبه يضطرب من جديد.

قال بصوت منخفض:

= هل تقصد الصفحة النيزك الذي رصدته وكالة ناسا منذ أسابيع ؟

أجابت، وعيناها تلمعان ببريق الذهول :

= ربما .. لا يمكنني الجزم و لا الإنكار ..

سكتا معًا، كأن الزمن قد انحنى ليصغي إليهما... وربما ليتسرب من بين أصابعهما، حاملاً سرًا، أُغلق لقرون... ثم فُتح أخيرًا، على يد امرأة يتلون على وجهها قمر الأندلس.

وقف القبطان ميغيل أمام الشاشة، والدهشة تعقد جبينه.

سألها مجدداً بصوتٍ خفيضٍ لكنه يثقب جدار الصمت كشعاع ليزر:

= و هل ثمة أسرار أخرى هامة في المخطوطة ؟

ابتسمت ماريانا ابتسامة صغيرة... ليست نشوة، بل رهبة.

= المخطوطة مكتنزة بالأسرار .. تلال ذهب ، عمالقة ، حيوانات ناطقة ..

قالت،

= لكن على رأسها يقبع السرّ الأخطر بلا منازع.

ثم مشت بخطى ثابتة إلى رف الكتب المائل، وسحبت منه مجلدًا غريب الغلاف، بدا كأن الجلد الذي يكسوه ليس جلد حيوان... بل جلد الزمان نفسه.. أطلس الأرض بنسخة عتيقة في كفن من غبار.

وضعت الكتاب على الطاولة وفتحته بعناية، صفحة تلو الأخرى، حتى وقفت عند مخطط هرمي مُحاط بدوائر ودوامات وكتابات على هيئة رموز.

= هنا ..

قالت،

= يتحدث نص المخطوطة عن هرمٍ غامض... يقع في أكثر بقاع الأرض جموحاً و برودة ، في قارة لم تطأها أقدام كثيرة، القارة القطبية الجنوبية.

ارتعشت أطراف القبطان للحظة، وهو من ظن أنه لم يعد في الدنيا شيء قادر على إدهاشه.

تابعت ماريانا بصوت يملؤه مزيج من الثقة و التشويق :

= إنه **هرم السوورث** .. ذلك الكيان الغامض الذي ظلّ العلماء حائرين أمامه لعقود.. و القابع في قلب الصقيع الأزلي، في القارة البيضاء التي لفظتها الأرض مع آخر أنفاسها ..

يقف هيكله العظيم ليس كمجرّد جبلٍ جليدي أو قمة صخرية مثل آلاف غيرها، بل كتكوين مهيب يجمد العقل بدهشة لا تذوب.

يقع هذا الهرم الجليدي الغامض في منطقة **أرض فيكتوريا** في أنتاركتيكا، وتحديدًا على مقربة من ساحل **بحر روس** ..

ويُعدّ واحدًا من أكثر التشكيلات الجيولوجية التي أثارت جدلًا منذ اكتشافه في ثلاثينيات القرن العشرين.

اكتُشف لأول مرة من الجو عام **1935**، على يد فريق استطلاع أمريكي، كانوا يبحثون عن تضاريس جديدة لإضافتها إلى

الخرائط...

لكن ما رأوه من نافذة الطائرة كان شيئًا يتجاوز علم الخرائط. قمة هرم ثلاثية واضحة الزوايا، قاعدته واسعة ، وأضلاعه ترتفع بانسياب دقيق كما لو كانت قد صممت لا بفعل الطبيعة، بل بأصابع محترفين على دراية بفنون النحت و التصميم ..

كل ضلع من قاعدته يقارب الكيلومترين، أما ارتفاعه فيناهز **400** متر ..

ولا وجود لجبال مجاورة تشبهه في الشكل أو التكوين.

أعطوه لاحقًا اسم **جبل سوس** تكريمًا لعالم جيولوجيا بريطاني، لكنّ المتتبعين للظواهر الغريبة، وسكّان الأسئلة المستحيلة، أطلقوا عليه اسمًا آخر: **هرم السوورث** ، نسبةً إلى مكتشفه الأول ..

عند النظر إليه عبر الأقمار الصناعية أو التصوير الجوي، يبدو الهرم كما لو كان صورة مكررة لهرم خوفو المصري... لكن على أرض من جليد، في منطقة يستحيل فيها وجود حضارات بشرية سابقة.

العلماء حاولوا باستمرار إقناع العامة بأنه مجرد تشكيل طبيعي، نشأ نتيجة ملايين السنين من عوامل التعرية والضغط الجيولوجي، وأن الشكل الهرمي ليس دليلًا على صنيع عقلٍ واعٍ، بل محض مصادفة هندسية.

لكنّ العين لا تُخطئ.

لاسيما أنّ هناك ما هو أدهى من الشكل :

تمّ رصد ترددات مغناطيسية غريبة تصدر من محيطه الداخلي. الصور الحرارية تُظهر مناطق دافئة غامضة تحت سطحه الجليدي.

نظرية بناء الهرم بعرق الجباه لا بصبر الطبيعة ، كانت تُعدّ ضربًا من الهوس، لكن اليوم باتت على طاولة الباحثين و العلماء أكثر من مجرد فرضية ..

هناك من يعتقد أن الهرم يخفي بوابة، أو رسالة، أو تقانة ما قبل التاريخ.

و المدهش أكثر في الموضوع أن الهرم مرصود قبل قرون من اكتشافه في خرائط عتيقة كساها الغبار و أهملها فضول البشر ..

= معقول ؟!

تمتم ميغيل بدهشة.

= بالطبع .. لقد ظهر الهرم على خريطة أخرى لا تقل غموضاً ..

تقدّمت ماريانا نحو درجها القديم وسحبت نسخة مكبرة من خريطة ، فرشتها أمامه كما تُفرش سجادة صلاة.

الألوان باهتة، والخطوط كأنها رُسمت بريشة ساحرٍ أزتكي أو كاهن فودو ، تُظهر بدقةٍ مدهشة شواطئ أفريقيا الغربية ، وسواحل أمريكا الجنوبية الشرقية ،

ثم المفاجأة :

القارة القطبية الجنوبية... بدون جليد.

= ما هذا بحق السماء !؟ أنتراكتيكا بدون ثلوج !!

هتف ميغيل..

= تماماً ، هذه واحدة من أغرب خرائط التاريخ التي تحوم حولها الأسرار و حيكت من أجلها عشرات القصص الغامضة .. **خريطة**

بيري ريس.. فإن كانت فوينيش **المخطوطة** الأكثر غموضاً ، فبيري ريس هي **الخريطة** التي تشاطرها الغموض ذاته ..

= و ما قصة هذه الخريطة العجيبة بدورها ؟!

= في العام **1929**، وأثناء أعمال ترميم روتينية لجدران **قصر طوب قابي** العثماني في إسطنبول، عثر أحد أمناء المتحف بالصدفة على جلد غزالٍ قديم، مرسوم عليه ما بدا أول الأمر خطوطًا باهتة غير ذات معنى.

لكن ما إن وُضع تحت عينٍ خبيرة، حتى انكشفت الحقيقة التي هزّت الأوساط العلمية والتاريخية على حد سواء :

كانت هذه واحدة من أقدم الخرائط الكاملة للكوكب... نادرة، دقيقة، وغامضة إلى حد لا يُطاق.

هذه الخريطة المذهلة، التي رُسمت عام **1513**، تحمل توقيع **أميرال الأسطول العثماني بيري ريس**، وكانت جزءًا من أطلس بحري مفقود.

رُسمت على جلد غزال، بألوان باهتة بفعل الزمن، لكنها لا تزال تحتفظ بسحرٍ يُشبه السحر القديم المحفور على الحجر.

تشمل الخريطة جزءًا من الساحل الغربي لأفريقيا، والساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، وجزر الكاريبي ..

والأكثر إثارة :

القارة القطبية الجنوبية ... لكن بدون جليد.. كما ترى بنفسك.

قوس ميغيل حاجبيه بدهشة :

= غريب ؟!

= بلى ، تظهر أنتاركتيكا وكأنها جزيرة خضراء، عارية من أي

غطاء جليدي .. رُسمت كما لو أن من خطّها كان يراها بعين مجرّدة، لا من خلال طبقات من الثلج عمرها آلاف السنين.

وهنا تبدأ الحكاية.

ما حيّر العلماء ليس فقط شكل القارات المرسومة، بل الدقة التي تفوق زمنها.

كيف لرجل من أوائل القرن السادس عشر أن يرسم بهذه الإتقان ؟ في زمنٍ لم تكن فيه أدوات قياس الطول والعرض الجغرافي قد تطورت بعد ؟ و لا إمكانية للتصوير من السماء ..!!

صرّح بيري ريس في هوامش الخريطة أنه اعتمد على عشرين خريطة أخرى كمصادر، منها خرائط عربية ويونانية قديمة، ومنها – كما زعم – خريطة كريستوفر كولومبوس نفسه، التي لم يعثر عليها أحد حتى اليوم.

لكن الألغاز لا تتوقف هنا...

فبعض الأبحاث – ومنها دراسة قُدمت إلى الكونغرس الأمريكي في الستينيات – أكدت أن الخريطة تُظهر معالم أرضٍ لا يمكن رؤيتها اليوم إلا عبر المسح الراداري تحت الجليد.

أي أن من رسمها كان يملك معرفة طبوغرافية لأرض مغطاة بالجليد منذ أكثر من ستة آلاف سنة.!!

وهنا ظهرت نظريات مثيرة :

هل اعتمد بيري ريس على خرائط من حضارة مفقودة ؟

حضارة سبقت العلم الحديث ؟

أم أن جهات أخرى – غير بشرية – قدّمت للإنسان شرارة المعرفة مبكرًا ، كفضائيين رصدوها من السماء منذ مئات الآلاف من السنين ؟

أم أن آخرين من كونٍ موازٍ رسموها كما هي لديهم .. ؟

اقترب ميغيل من الخريطة و تأملها بدهشة ..

الخريطة مكتظة بتفاصيل دقيقة : تُرسم الحيتان كالملوك، و السفن تمخر البحار مزينة بالأشرعة، وتُحيط بالمحيط الأطلسي إشارات توضح اتجاهات الرياح، ومسارات التيارات البحرية، كأنها خريطة لأحلام المستكشفين... أو دليل إلى بوابات الأسرار.

تابعت ماريانا كلامها ..

= خريطة بيري ريس ليست مجرد قطعة أثرية، بل صفحة ضائعة من كتاب الأرض.. خريطة تسخر من الحدود الزمنية التي فرضها علينا التاريخ، و تُلمّح أن العالم الذي نعرفه ربما كان معروفًا، مرسومًا، ومسكونًا بالحضارات... قبل أن نبدأ بكتابته.

أشارت إلى هرم مرسوم في الهامش الجنوبي من الخريطة .

= و مخطوطة فوينيش تطرقت إلى هرم إلسوورث الذي تراه على الخريطة بوضوح... وقالت ، بحسب ترجمة الذكاء الاصطناعي ، أنه يخفي في جوفه أحد أكبر أسرار التاريخ كما آمن كثيرون من قبل ، بل حددت موقع بوابته السرية بدقة وطريقة فتحها ، لتحسم الجدل بأنه هرم من صنع كائنات حية و ليس صنيعة الطبيعة كما كان مرجحاً ..

ميغيل، الذي خاض حروبًا بحرية لا تعد ضد الطبيعة، شعر لوهلة أنه يقف أمام شيء أعمق من خندق ماريانا .. لكن ماريانا الأخرى ، زوجته ، لم تمنحه ترف التفكير ، فقالت بصوت هامس و جاد :

= إذن... ما رأيك، أيها القبطان ؟ هل نمضي إلى هناك برحلة بحرية على متن يختك، نحمل معنا هذه الأسرار، ونصل إلى الهرم بأقدامنا فنفتح بوابته ، لندخل التاريخ من أوسع أبوابه ، من بوابة الجغرافيا .. أو ربما إن كنا محظوظين أكثر نلج إلى قلب الحقيقة ذاتها.

ضحك ميغيل ضحكة قصيرة، لكنها كانت محمّلة برضا المغامر الذي وجد وجهته التالية.

= ولِمَ لا ؟

قال،

= كنا اتفقنا على رحلة الشهر المقبل إلى **جزيرة القيامة في تشيلي**، و لا مانع من تغيير اتجاه البوصلة قليلًا... من الغرب إلى الجنوب، نحو قارة الثلج و المجهول.. فلعل قيامة أخرى تنتظرنا هناك **!!**؟

اقترب منها، أمسك بيدها وقال بهدوء :

= لكننا سنحتاج إلى تجهيز دقيق.. فهذا النوع من الرحلات لا يقبل العبث.

= بالطبع...

أجابته ..

= لدينا أسبوع كامل لإعداد المؤن والمعدات.. و سنستعين بثلاثة مساعدين بخبرات متنوعة بحسب ما تقتضيه الرحلة، كما أننا سنجهّز كاميرات تحت الحمراء، ناهيك عن اصطحابنا لكميات مهولة من المؤن... وسنأخذ معنا كل الاحتمالات، لكننا سنترك خلفنا شيء واحد ... **الخوف** .. فلا قمرة له على سطح يخت

مغامرتنا هذه ..

ارتفعت نظراتهما نحو الخارطة، حيث الخط الأحمر ينحدر من قارتهم الموغلة في القدم إلى نقطة صغيرة في القطب الجنوبي المجهول البكر .. مرتع الغموض و الأسرار.

تلك النقطة...

حيث ينتظر هرم السوورث، منذ آلاف السنين ، أن يطرق بابه أول من يجرؤ.

سدّ

ذي القرنين

فرنسا / إمارة موناكو ..

2471 م ..

في عوالم الطموح البشري، حيث تتقاطع الخطوط بين الرفاهية والانطفاء، يقف **باسكال دوبويسون** كاستثناء نادر.

رجلٌ فرنسي، في أواخر الستين من عمره، يملك ثروة توازي ميزانيات دول، لكنه لم يكن أسير أرقامٍ تلمع على شاشات البورصة، ولا عبداً لقصور فاخرة نُقشت جدرانها بذهب الأباطرة.

لقد جنى كل شيء يمكن أن يُجنى ..

وتربع على عرش إمبراطوريات العقار، والتقنية، والتمويل ..

لكن قلبه ظل جائعًا...

ليس للجواهر أو المجد ..

بل لصوت المغامرة وهي تنبض في عروقه كالطبول.

باسكال دوبويسون، للوهلة الأولى، رجلٌ لا يُنسى.

بنيته لم تكن ضخمة بالمعنى التقليدي، لكنها تنطق بقوة ناعمة، كما لو أنّ جسده تكوّن من صخور الغابات القديمة، منحوتة بالرياح والأسرار. طويل القامة، عريض الكتفين، يحمل في قامته المنتصبة أثر سنين من ركوب الخيول، التسلق، ومواجهة الطبيعة بندّية.

وجهه كخريطة ملوّنة بالتجربة...

كلّ تجعيدة فيه تشبه خط عرض عاشه، أو خط طول عبره.

جبينه واسع، كأن أفكاره دائمًا في حالة تحليق. عيناه بلون العسل

المحترق، تتبدّل ألوانهما تحت الضوء، وتكاد تقول إنهما رأتا أكثر مما يُحتمل. فيهما بريق تحدٍّ دائم، لكنه مكسوٌّ بشيء من الحزن الجميل، كأن داخله ساحة معركة لا تنام.

أنفه مستقيم كقمة لم تمسسها يد البشر، وفمه مرسوم بخط رفيع يوحي بالحسم أكثر مما يوحي بالابتسامة.

حين يضحك، – وهو نادرًا ما يفعل – يبدو وكأنه يُفرج عن سرٍ دفين لا يمنحه إلا لمن يستحق.

شعره الرمادي المائل إلى الفضيّ، كان كثيفًا بشكل غير متوقَّع في سنّه، أشعث أحيانًا، ومسرَّح بعناية حين يظهر في المؤتمرات. لكنه في العمق لا يهمّه كيف يراه الناس، بقدر ما يهمه كيف يرى هو نفسه في مرآة الإنجاز.

ملابسه بسيطة على غير عادة الأثرياء...

غالبًا ما يرتدي قمصان الكتّان الخشنة، وسراويل ميدانية، وساعة سويسرية من طراز قديم أوقف عندها الزمن في لحظة انتصارٍ قديمة لا يريد نسيانها.

لكن ما يميّزه بحق، لم يكن مظهره الخارجي فقط...

بل تلك الهالة الغريبة التي تحيط به أينما حلّ،

كأنّه رجل خرج من عصر الاستكشافات الكبرى، وحمل معه كل أساطيره، وكل خرائطه المفقودة، ليخبر العالم :

أن خلف الجبال، ما زالت الأسرار تنتظر،

وأن بين الكلمات، ما زال هناك سطر لم يُكتب بعد.

شبابه كان خريطة مفتوحة،

قطع الربع الخالي على ظهر جمل، وغاص في **كهف سون دونغ**

بفيتنام كمن يبحث عن قلب الأرض، اقتحم غمار **وادي الموت** بنيفادا بابتسامة تتهكم من اسمه و خرج منه ، لا حياً فقط ، بل بروح متمردة أقوى و أكثر طموحاً و عزيمة ..

تسلّق **قمة إيفرست** وترك في ثلجها قصاصة من قصائده، و سار على الأقدام عبر **حوض الأمازون**، حتى قال عنه السكان الأصليون هناك :

هذا الرجل لا يخاف... بل يطلب من الأدغال أن تخاف منه.

ورغم اقترابه من السبعين، لم تفقد عينيه تلك اللمعة،

لم تفقد يديه رعشتهما الطفيفة كلما شعر بأن مغامرةً تلوح في الأفق.

ولكن... رغم كل ذلك، بقيت في داخله بؤرة فراغ صغيرة، قطعة نادرة من أحجية الحياة، تأبى أن تكتمل، وتصرّ على أن تنهضه من مكانه كلما همّ بالاستقرار.

في أقصى جنوب فرنسا، على مرتفعٍ مشرفٍ على بحيرة كأنها مرآة للزمن، شُيّد قصر باسكال... خَليطٌ بين الفن القوطي وروح الفايكنغ.. بُني من حجرٍ داكن خشن، كما لو أراد لصمته أن يوازي صخب روحه.

ذلك المساء، لم يكن كغيره. شمس سبتمبر تتهادى نحو الغروب، والهواء مشبعٌ برائحة عنبٍ ناضج على كرمة عجوز، وشجرة صفصاف عتيقة في زاوية الباحة تهتز كأنها تهمس للعالم بأسره.

جلس باسكال في حديقته المعتادة، على مقعد خشبي أملس صنعه نجار من نيبال. بيده كأس نبيذ أحمر معتّق، وبالأخرى هاتفه

المحمول، يتنقّل بين أخبارٍ فارغة، ومقالاتٍ عن الاقتصاد، وبعض الصور الباردة التي لا تثير فيه شيئًا.

كان الجو هادئًا، بل مسرفًا في هدوئه. حتى الطيور، بدا وكأنها تتريث في الغناء، وكأن الأرض نفسها كانت تنتظر لحظةً مغايرة.

بعينيه المتجعدتين، قلب باسكال الأخبار كما يُقلب الناس أوراق الزمن، حتى شعر فجأة بشيء غريب...

في وسط روتين التقليب، سقط بصره على عنوان مختلف. عنوانٌ لا يشبه ما سبقه، كأنه نافذة طارئة انفتحت من جدار الصدفة.

المقال لم يكن من موقع شهير، ولا حتى من تلك المجلات المصفوفة بالأناقة الرقمية، بل من صفحة بدائية، عتيقة الخط، كُتب فيها :

(السر المطمور خلف سد ذو القرنين: هل لا يزال يأجوج ومأجوج أحياء ؟)

وبينما تجمد إصبعه فوق الشاشة، انكمش الهواء من حوله، و انحبست الطيور في أغصانها، وارتعش الصفصاف القديم كما لو بلّله وحيٌ مفاجئ.

باسكال لم يقرأ السطر التالي بعد، لكن شيئًا ما في صدره انتفض،

كما لو أن قطعة الأحجية التي افتقدها عمرًا كاملًا، أرادت أن تهمس أخيرًا...لكن ليس بالكلام، بل بنداء عتيق من التاريخ، نداء لا يُسمع... بل يُستشعر.

وهكذا، قبل أن يضغط على المقال، عرف باسكال بيقينٍ لا يُفسَّر... أن شيئًا عظيمًا على وشك أن يبدأ، وأن المسار الذي سينقله إلى

المغامرة الأخيرة قد انفتح لتوّه... تحت شجرة صفصاف، و في مساء لا يشبه أي مساء.

كان المقال الذي سقطت عليه عينا باسكال أقرب إلى سفر قديم نُبش من رماد الزمن. كُتب بأسلوب مزيج من علم الآثار، والسرد النبوي، والخرافة الشعبية، كأن من خطّه لم يكن كاتبًا، بل كاهنًا يقصّ على البشرية آخر أسرارها. يتحدّث عن قوم غريبين، عرفهم الناس بأسماء مختلفة في لغات متباعدة،

لكنّ الأديان السماوية الثلاثة، رغم ما بينها من اختلافات وتشعّبات، اتّفقت على اسمٍ واحدٍ لهم :

يأجوج ومأجوج.

في **القرآن**، ترد الإشارة إليهم مرتين، في سورتي الكهف والأنبياء،

أما في **الإنجيل**، فتبرز ملامحهم في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي،

وفي **التوراة**، تجدهم في سفر حزقيال.

ويا للدهشة...

فكلُّ الكتب السماوية، من غير اتفاقٍ بشري، أجمعت على وصفهم بالقوم المتوحشين، أشرارًا فُتنوا بالدم والخراب، لا يكتفون بالقتل، بل يجرّدون الضحايا من إنسانيتهم قبل أن ينهوا أجسادهم.

كانوا مثل الجراد إذا غزا، لا يبقي على شيء..

يأسرون، يعذّبون، يفتكون ..

ثم يواصلون الزحف كأنهم قوة خارجة من رحم الجحيم.

وهنا – بحسب الروايات الدينية – أوحى الله إلى رجل صالح اسمه ذو القرنين أن يُنقذ البشرية منهم، و يشاع أنه **الإسكندر المقدوني** ..

فبنَى سدًا هائلًا في قلب الأرض، وسجن خلفه تلك القوّة الفوضوية منذ آلاف السنين.

لكن المقال لم يتوقّف عند الرواية الدينية وحدها، بل ربط بين التراث والأسطورة والمعطيات الجغرافية الحديثة، كما لو أنه يحاول خياطة الواقع بالإيمان،

ورسم صورة حية لحقيقة مرعبة نُسيت تحت رماد الزمن.

فقد أشار المقال إلى وجود تشابهٍ مذهل بين وصف يأجوج ومأجوج في الموروث الإسلامي، وبين أساطير الشعوب الآسيوية التي تحدّثت عن عمالقة حمر الشعر، بوجوهٍ دائرية صلبة كالمطارق، وعيون ضيقة كأنها مصنوعة للشر وحده.

وتمتد جذورهم – كما ذُكر – إلى آسيا الوسطى، حيث تقع اليوم دول مثل **قرغيزستان وأوزبكستان،**

وهنالك، بين الجبال الهائلة التي تشبه أفخاذ العمالقة، تقع منطقة منسية...

أرض وعرة، غير مأهولة، لا يمكن للطائرات اختراقها بسهولة بسبب اضطرابات مغناطيسية مجهولة.

وقد زعمت أجهزة رصد حديثة أنها كشفت بين تلك الجبال ممرًا ضيقًا بين جبلين، تتطابق مواصفاته مع وصف السد القرآني. فذاك السد، بحسب القرآن، بُني بين صدعين ، أي جبلين متقابلين.

لكن التفصيل الأكثر إدهاشًا جاء لاحقًا :

في الآية القرآنية التي تقول أنّ ذا القرنين رأى الشمس تغرب في **عينٍ حمئة** ، فالأكثر غرابة أن تلك المنطقة تحديدًا، تحوي بحيرةً تُدعى بلغة أهل قرغيزستان : (**البحيرة الدافئة أو الساخنة**)

وهي الوحيدة في المنطقة التي لا تتجمّد حتى حين تهبط الحرارة إلى **25** درجة تحت الصفر.

ولكأنها عينٌ بشريةٌ غائرة في لحم الجبل، تنتظر لحظة التجلّي.

ختم المقال بجملة كُتبت كإنذار، لا كخاتمة:

(إن قوم يأجوج ومأجوج، بحسب العقيدة الإسلامية، سيخرجون ذات يوم في نهاية الزمان من خلف السد، وتكون تلك لحظة انهيار، لا على بلدٍ أو إمبراطورية، بل على كوكبٍ كامل. فذلك، كما تقول الرواية النبوية، من أشراط الساعة الكبرى. يوم تخرج القوّة المظلمة من عقالها... ويبدأ العدّ العكسي لنهاية الحياة.)

وقد أضاف المقال نظريّة غريبة تُشعل الخيال :

ربما كان **عملاق قندهار** الذي قيل إن القوات الأمريكية التقت به صدفة عام **2002** في كهوف أفغانستان، فرداً من قوم يأجوج ومأجوج، ضلّ عن وطنه حين أُغلق السد، أو خرج في مهمة، أو بقي سابحًا في الزمان بمعدّلٍ غير بشري.

وقد أُسر ذلك العملاق – كما ادّعى المقال – وسُجِن سرًا في منشآت عسكرية أمريكية، ولم يُكشف للعالم خشية من انهيار الثوابت.

وبين الحقيقة والخيال،

ظل المقال يتأرجح كأنّه نبوءة جاءت قبل أوانها... أو بعد فوات الأوان.

وبين سطوره، شعر باسكال أن عروق الأرض تنبض بأن شيئًا ما يستيقظ من تحت طبقات الزمن.

وأن مكانًا منسيًا في آسيا الوسطى، يخفي خلف جباله أقدم سجنٍ عرفه التاريخ، وأخطره على الإطلاق. سجن ينتظر المغامرة الأخيرة كي تتحرر من أبوابه الموصدة ..

*****

ثغرة تسد بأسطورة ..

ابتسم باسكال دوبويسون ابتسامة لم يعهدها وجهه من قبل...

كانت أقرب إلى ابتسامة طفلٍ عثر فجأة على باب السرّ، بابٌ ظل مفتوحًا داخله، دون أن يدري إلى أين يؤدي. لكن الآن، ومع انبلاج المقال أمامه كنبوءة منسية، شعر بشيء أشبه بالاكتمال .. كأن الثغرة التي ظلّت تنخر كيانه، والتي لم تملأها جبال التبت ولا قمم الأنديز ولا كنوز مغامراته السابقة... قد امتلأت لتوّها.

كان المقال عن يأجوج ومأجوج لا يشبه سواه، لا في لغته، ولا في محتواه، بل في الطريقة التي تسلّل بها إلى شغافه كنسمةٍ باردة في قلب صيف مشتعل.

المفارقة؟

أن حماسه لم يكن مشوبًا بالخوف، بل بالإثارة... بالنشوة. كان كمن ينتظر النهاية لا ليهرب منها، بل ليكون شاهدًا على ولادتها.

هو، باسكال، المغامر الذي جال الأرض كلها، سيُختَتم اسمه ربما في سفر النهاية، ليس كمجرد ملياردير، بل كرجلٍ شهد، وربما ساهم، في إطلاق العنان لما لا يُروّض.

تسارعت ضربات قلبه كما لم يحدث منذ عقود. أحس بأن أيامه المقبلة ليست إلا فصولًا من ملحمة كونية، كتب له أن يكون بطلها

المتقدّم إلى المجهول.

في داخله، كانت فكرة غريبة تتشكّل ببطء :

ربما هم سيخرجون على يده ..

يأجوج ومأجوج...

قوم الغضب، أعداء الأرض، الذين طال حبسهم خلف السد العظيم. و الذين يحملون بظهورهم علامة جديدة من علامات الساعة التي بدأت بالتوالي بالفعل .. و أصبح مالئة الدنيا و شاغلة الناس ..

لم يفكر بالعواقب، لم يحدّث نفسه عن الدمار، ولا عن ملايين الأرواح التي ستزهق على يد العمالقة ، بل عن شيء واحد فقط : المغامرة و الإنجاز.

لقد قرأ عنهم للتو ، آمن بوجودهم ، والآن، يقف على أعتاب رحلتهم...

فهل هو رسول القيامة ؟

أم ساعي بريدها ؟

أم مجرد مغامر وقع على مفتاح غرفة النهاية ؟

وبسرعة مذهلة، بدأ التحضير.

أصدر أوامر حاسمة لفريقه الأمني واللوجستي :

- تذاكر طيران إلى قرغيزستان.
- دليل محلي من قبائل البدو الرحّل في **جبال تيان شان** .
- مترجم يتقن القرغيزية والروسية بطلاقة.
- فريق استكشاف متخصص: ثلاثة رجال مدرّبين على التسلّق،

المسح الجيولوجي، الملاحة، البقاء في ظروف قصوى.

- مؤن غذائية وطبية ..
- معدات تصوير وتسجيل وخرائط طبوغرافية ومعززات **GPS**.
- وطائرة درون عالية الدقة، قادرة على اختراق الممرات الجبلية الضيقة.

كل شيء صار يتحرك كما لو أن ساعة القيامة بدأت بالدق.

في تلك الليلة... جلس باسكال وحده في شرفته الحجرية العالية، الصفصاف أمامه يئن برفق، والقمر كعينٍ رمادية تراقب الأرض من علٍ.

رفع رأسه عاليًا إلى السماء، وكأنّه يسألها لا عن مصيره فحسب، بل عن مصير البشرية بأكملها.

ما الذي يخبّئه القدر ؟

هل سيفتح الجبل شفتيه ويبتلع العالم ؟

أم سليفظ أولئك العمالقة من جوفه ؟

فتتغير خرائط الأرض والسماء ..

هل سيكون هو شهيد القيامة ؟ أم باعثها ؟

أم مجرّد شاهدٍ آخر يحمل فوق أكتافه ذنب الفضول ؟

لكن شيئًا فيه، أعمق من الفكر، أصدق من العلم، كان يهمس له بهدوء :

لا أحد يوقظ التنين دون أن يُلامس ناره.

ورغم ذلك...

رسم ابتسامة جديدة،

لكنها لم تكن ابتسامة الانتصار...

بل ابتسامة اليقين.

اليقين بأنّ لحظة الحسم اقتربت،

وأن كتاب العالم على وشك أن يُطوى...

صفحة، صفحة...

بخطى رجلٍ لم يتوقف يومًا عن البحث عن السطر الأخير.

الناقة المعجزة

و النار العظيمة

المملكة العربية السعودية / موسم الحج ..

2471 م ..

في تلك اللحظة التي ينفصل فيها الزمن عن ساعته ..

حين يغدو الفضاء دائرة نقية تحيط بمركز الأزل ..

كانت جموع الحجيج تمضي في طوافها حول الكعبة المشرفة، كأنما الكون بأسره قد اتخذ شكلاً بشريًا وأتى ليدور.

سبع دورات كسبع سماوات، كسبعة أيام إلهية ستختتم بالقيامة ..

سبع خطوات كأنها محطات التطهّر من أدران الأرض.

وما إن تبدأ الدورة، حتى تتجه القلوب والعقول إلى النقطة الأولى، حجر الزاوية في طقوس الحج .. **الحجر الأسود،**

حيث يقف الحاج بخشوع، يُقبّله إن استطاع، أو يلمسه، أو يكتفي بالإشارة إليه وهو يهمس:

بسم الله، الله أكبر.

في تلك اللحظة، يتوقف ضجيج الداخل، ويبدأ السكون في الحديث.

كأن الحجر يهمس لمن يقترب منه :

أنت هنا كي تعود إلى ذاتك الأولى.

لكن، قليلون يدركون سرّ هذا الحجر ..

قليلون يعرفون ما الذي يخفيه في ظاهره الأسود، ذلك اللون الذي

لا يبتلع النور فقط، بل يحمل آثار من عبروا من قبله، من بكوا، وسجدوا، ونذروا، وغفروا، وغفر لهم.

يروي التاريخ الإسلامي أن الحجر الأسود لم يكن من هذه الأرض، بل هبط من السماء كما تهبط الملائكة في صمتٍ لا يُسمع.

نزل من الجنة نقيًا، أبيض كالثلج، لكنه ما لبث أن اسودّ بفعل خطايا البشر.

سودته أنامل الآثمين الذين قبّلوه ولامسوه، فأضحى مرآة صامتة تلتقط وجوه التوبة، وتلوّن نفسها بالحكايات، بالندم، بالذنوب، وبالغفران.

كان **آدم** أول من لمسه بعد الهبوط ..

وكان **إبراهيم** من وضعه في موضعه الحالي ..

كأنما كل نبي جاء ليضع حجرًا في بنية التوبة ..

حتى جاء خاتمهم، **نبي الرحمة محمد** .. فحمل الحجر بين يديه الشريفتين، ورده إلى مكانه بعد خلاف قريش.

كل لمسة إذًا ليست مجرد فعل جسدي، بل امتداد لخط تاريخي يبدأ من الجنة، ويمر عبر الأنبياء، لينتهي عند قلبك.

لكن ما هذا الحجر ؟ ما قصته بالضبط ؟

هل هو مجرد حجر كريم في جدار مقدّس ؟

أم أن هناك ما هو أعمق، أقدم، وأغرب مما نتصوّر ؟

بعض العلماء يرون أن الحجر الأسود ليس حجرًا أرضيًا على الإطلاق، بل قطعة نيزكية هبطت من السماء منذ آلاف السنين، تم صقلها ووضعها في مكانها لتكون رمزًا للتواصل بين السماء والأرض.

تشير بعض الأبحاث الجيولوجية إلى أن مكونات الحجر تختلف كليًا عن صخور مكة، وأنه يحتوي على عناصر نادرة، تمامًا كالأحجار النيزكية التي تسقط من أطراف المجرات.

فهل هو حجر من بقايا كوكب احترق ؟

أم قطعة من سديم خُلِق قبل الأرض ذاتها ؟

أم... هو شيء أبعد من العلم ؟

قطعة من نسيج الزمان ؟

أو صاعقة مجمّدة تحوي في ذراتها أسرار الخلق ؟

ما من جواب قاطع.

لكن ما من مؤمن مرّ به إلا وشعر أن لهذا الحجر نظرة خفية، و صمتًا يتكلم، وثِقلاً لا يُقاس بالكيلوغرامات بل بالأرواح.

تمرّ آلاف السنين، وتبقى الأسرار تتوارى بين السطور، حتى أتى يوم، وعادت السماء تتحدث.

وكالة ناسا أعلنت ظهور نيزك ضخم يتجه نحو الأرض، يمرّ على مسار قريب منها خلال عامين.

العلماء قالوا إنه آمن .. لكن القلوب لا تطمئن للأرقام حين يكون القلق من نوع كوني.

وسرعان ما انتشر الخبر، واندمج في ذاكرة الناس مع نبوءات قديمة، وهمسات كتبها الصالحون والمجانين، عن حجر سماوي يهبط على الأرض ليعيد ميزانها المختل.

وهنا، بدأت التشبيهات، والمقارنات، والربط الكبير :

هل النيزك القادم هو الشقيق الأعظم للحجر الأسود ؟

هل سيأتي ليُحاسب الذين اسودّت قلوبهم، كما اسودّ الحجر ؟

هل آن الأوان كي يهبط قضاء السماء، بعد أن فاض كأس الأرض بالخطيئة ؟

الناس خائفون. والعالم يحتضر بلا صوت.

الأرض تميد، والسماء تضيء بألوان لم تُر من قبل.

وفي قلب مكة، ما زال الحجيج يطوفون... يقبلون الحجر، يلمسونه، يسلّمون عليه كما يُسلّم على العائد من غياب طويل.

لكن الحقيقة التي تهمس بها الأيام :

أنّ العدّ التنازلي قد بدأ.

وأن هذا الحجر الذي وُضع رمزًا للتوبة، قد يعود ليكون شاهِدًا على النهاية.

فحين تتكدس الخطايا حتى تسود القلوب، وتفقد الأرض إيمانها بالبدايات، تصبح القيامة ليست تهديدًا... بل خلاصًا بصورة نهاية

وكما قال أحد الحكماء :

آخر العلاج الكيّ ...

وما الكيّ في هذه الحالة، إلا نيزك قادم، يشبه أخاه الحجر المقدس، لكن بدل أن يُقبَّل، سيهوي في أحضان الأرض ليُنهي طقس الطواف الأخير حول الكعبة... ويسدل الستار.

*****

الناقة المعجزة ..

لموسم الحج في شبه الجزيرة العربية هذا العام رائحة مختلفة ، تلك المنطقة الصحراوية القاحلة التي عادت مخضوضره و معشوشبة منذ قرنين من الزمن كعلامة جديدة من علامات الساعة ، الرائحة تشبه الخوف المغسول بالدموع، أو رجفة العالم وهو واقف على أطراف أصابعه ينتظر شيئًا لا يعرف له اسمًا.

الحجيج يتوافدون من أرجاء الأرض... يطوفون، يلبّون، يبكون، ينحرون، ويهتفون بقلوب مخلصة

لبيك اللهم لبيك

وكأنهم يعزفون سيمفونية جماعية تطفو فوق جسد الأرض المتصدع.

لكن...

في اليوم الخامس من ذي الحجة، وبينما كانت **جدة** تغفو على خاصرة البحر كعادتها، انبجس الخبر كما صيحة من الغيب، يهز جدران الواقع ويقلب النبضات.

ناقة وُلدت في أحد ضواحي المدينة... لكنها لم تكن عادية.

عيناها ليستا عينا بهيمة.. فيهما لمعان واعٍ، قلق، كأنهما تحملان ذاكرة لا تنتمي إلى هذا القرن.

وما إن انتصبت قوائمها المرتجفة على الأرض، حتى أطلقت تمتمات خافتة... تحولت شيئًا فشيئًا إلى كلمات.

كلمات متكسّرة... مفهومة في نطقها، غامضة في معناها، كأنها قادمة من لغة نُسيت منذ الطوفان.

الناس احتشدوا حول المزرعة كما يحتشد الحجيج حول الحجر الأسود. وجوههم شاحبة، أنفاسهم معلّقة على شفتي الناقة، و الصيحة تتردّد في وسائل الإعلام كأذان يوم الجمعة:

ناقة تتكلم !

المفاجأة لم تكن فقط في الناقة الناطقة، بل في أن هذا الحدث قد ورد في كتب التراث الإسلامي، بوصفه إحدى علامات الساعة الكبرى في **سورة النمل** ..

(و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)

فهل كانت هذه هي الدابة الموعودة ؟

أم مقدّمة فقط... كنبض جديد في عروق القيامة ؟

لم يكن أحد يملك الإجابة.

حتى العلماء والدعاة، بدوا حائرين ..

تارةً ينفون، وتارةً يتهامسون ..

وتارةً أخرى يصرخون من على منابر المساجد :

يا عباد الله، لقد بدأت النهاية !

خلال **48** ساعة فقط، تحوّلت الناقة إلى ترند عالمي.

أُنشئت لها صفحات على كل موقع اجتماعي،

وانقسم الناس إلى طوائف :

- طائفة المصدّقين : اعتبروها العلامة التي لا لبس فيها ..
- طائفة المشككين : زعموا أنها تجربة علمية سرّية خرجت عن السيطرة ..
- وطائفة اللا مبالين : اكتفوا بالسخرية، كما يسخر القلب الجبان من كل ما لا يقدر على تحمّله.

لكن الصوت لم يتوقف.

الناقة تهمس يوميًا بكلمات جديدة...

تكرّر أحيانًا أسماء أماكن لا وجود لها ..

أو تذكر أرقامًا متسلسلة عبر همهمات بتواتر معين ..

لم يستطع أحد أن يفهم.

لكنه أيضًا... لم يستطع أن ينكر.

تزايدت الزلازل الصغيرة في المناطق المحيطة منذ مولدها ..

هاجت البراكين النائمة في **البحر الأحمر** ..

وامتلأت سماء الليل بضوء شاحب لا يشبه نور القمر.

بدأ البشر يشعرون أن كل شيء حولهم يرتجف بصمت، كأن الأرض تتحضر لحدث جلل، والسماء تسجّل بالنجوم اعترافاتها الأخيرة.

أصبح من المستحيل الآن فصل صوت الناقة عن سياقٍ أكبر.
تلال الذهب في الفرات قبل شهور...
نيزك القيامة الذي أعلنت عنه ناسا منذ أسابيع...
والآن... **دابة تتكلّم.**

كأن كل قطعة من اللوحة الفسيفسائية المبعثرة بدأت تتجمع ..
كأن البشرية تقترب من نقطةٍ لا يصلح فيها إصلاح.
موسم الحج لم ينتهِ...
لكن العالم نفسه بدا وكأنه على وشك أن ينتهي.

لم تعد الناقة مجرد دابة...
بل أصبحت جسرًا بين الزمن والنبوة، بين الغيب والمعلوم، بين الطين والسماء.
ووسط كل هذا ..
ظلّت تتمتم... بصوت رخيم مكسور..
كأنها تعرف ما لا نعرف ..
وتقول ما لا نفهم ..
وتبكي، بلسان لا يشيخ، على بشر أسودت قلوبهم من كثرة الخطايا، حتى باتت القيامة حلاً لا بديل له.

*****

نار اليمن العظيمة ..

لم تمض سوى بضعة أيام على انشغال البشرية بحديث الناقة الناطقة، و فيما كانت العيون شاخصة إلى الحرم ومكة والسماء، ضربت الساعة بصمتها الأشد في مكان آخر ليس ببعيد...

في قلب **الصحراء الوسطى لليمن**، أرض النبوءات والجن، والممالك التي ذهبت ولم تذهب، هناك حيث الرمال لا تحفظ إلا من تختاره الصدفة أو القدر.

في تلك البقعة البعيدة القريبة ، انشقّ الليل على صوت لم يسمع البشر مثله من قبل.

تفجير مجهول المصدر، هائل، جبار، كأنما الأرض نفسها قد فغرت فمها وصرخت.

لكن الكارثة لم تكن في الصوت وحده ..

ولا حتى في توهّج النيران التي اخترقت السماء كسهم ناري ..

بل كانت في ما تخبئه الرمال...

فقد تبين لاحقًا، وبهمسات خافتة من مراكز استخبارات دولية، أن تلك المنطقة كانت تحتضن قاعدة عسكرية سرية للغاية، تحوي في باطنها ترسانة صواريخ ذات رؤوس نووية كميراث من القرون المنصرمة ، مدفونة كما يُدفن الغضب في قلب بشرٍ و لم يُشفَ.

لم يتبنَّ أحد التفجير.

لا دولة، لا جماعة، لا عدو واضح.

بل بدا وكأن اليد التي ضغطت على الزرّ غير مرئية ..

كأن أحدًا من الغيب قال كلمته وفجّر ما يجب أن يُنسف.

عشرات الأقمار الصناعية فوق اليمن، لم تلتقط سوى ومضات مبهمة، وضوء أبيض من نوعٍ لم يُسجّل في أرشيف العالم من قبل، يليه وميض برتقالي يتبعه لهبٌ أزرق ثم نيران صفراء محمرة ..

طافت الألوان السبعة سبع مرات في سماء اليمن كما لو أنها تحج إلى عرش الإله لا عرش بلقيس ..

و كأنما امتزجت النار هذه المرة بطيف قوس قزح .. لكنه هذه المرة لم يكن بوابة للأمل و الأحلام ، بل نذير باقتراب النهاية ..

امتدت ألسنة اللهب عبر خط النظر الجوي إلى آلاف الكيلومترات، شوهدت في مشارف بلاد الشام، وانعكس توهجها على النيل في لحظة سكون كاملة.

الأجهزة الجيولوجية رصدت ذبذبات تضاهي زلزالاً بقوة **9.3** ..

لكن لم تكن هناك صدوع في الأرض...

بل في السماء ..

في النسيج غير المرئي للعالم ..

كأن شيئًا أكبر بكثير قد انكسر فجأة...

صمتت الحكومات ..

وانهمرت التحليلات من كل صوب ..

لكن عالم الدين قبل عالم الذرّة، كان الأسبق في الهتاف :

(هذه علامة أخرى لاقتراب القيامة ... علامة لم تتكرر من قبل... نار عظيمة خرجت من اليمن)

وحدهم سكان القرى و المدن اليمنية شهدوا السماء تتشقق فوقهم وتتنفس النار.. وقال أحد الشهود العيان :

(كأننا رأينا طرف القيامة يشبّ من الأرض، ويصعد... يبحث عن وجه الرب ذو الجلال و الإكرام ..)

و إن كانت **قبيلة غفار في اليمن** قد غفر الله لها كما وعد نبي الرحمة ، فإن البشر الآن و في جميع أرجاء المعمورة عبروا الخطوط الحمراء ..

لم يعد للتوبة معنى و لا للغفران مكان ..

فقد سبق السيف العذل ..

و انهار سد مأرب الذي حمى البشر لقرون و تدفق طوفان نوح من جديد ليغرق الجميع بذنوبهم ..

و مع اشتعال الصحراء، وسُحب الدخان التي رسمت فوقها وجوهًا تشبه الملائكة الساقطة، كانت عيون الناس تترقّب من جديد ...

هل ما جرى هو حادث منعزل ؟

أم خطوة أخرى نحو شيء أُعِدّ منذ الأزل ؟

وهل هذا الانفجار مجرد صدفة ؟

أم صيحة أخرى تُضاف إلى صيحات النيزك، والناقة، والمياه المنحسرة عن الذهب ؟

ربما لا أحد يملك الجواب ..

لكن الجميع، دون استثناء ..

بات يسمع الصدى الواحد ..

صدى الآية التي لم يتلوها أحد، لكنها تُتلى باستمرار و قلق من خلف الحُجب :

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون)

أعور الجنّ

الأوروغواي / مونتيفيديو

2471 م ..

في عصر يوم لا يشبه سواه، حين بدأت شمس المحيط الأطلسي تهوي خلف الأفق بلونٍ نحاسيّ ثقيل، انطلق يخت القبطان **ميغيل ألميدا** من ميناء مونتيفيديو، بصمت البحارة الذين عرفوا البحر حدَّ التوحّد، و قلق الرحالة الذين قرروا مواجهة ما لم يجرؤ أحد على مواجهته من قبل ..

كان اليخت - المسمى **La Respuesta**، أي **الجواب** بالإسبانية - يلمع تحت خيوط الشفق كنصل حربة بيضاء يخترق صدر المحيط.

لم يكن مجرد مركبٍ عابر، بل أشبه بسفينة مصغرة من أساطيل كولمبوس و ماجلان ، لا تقصد أرضاً جديدة هذه المرة ، بل أسراراً لم تكتشف بعد ، و تحمل على متنها قلوباً تواقة للمغامرة ، مخطوطة غامضة حد السكر ، ونبوءة نسجت حروفها من حبرٍ قديم و رموز نسيتها القرون و لفظتها التكنولوجيا أخيراً ..

وقف ميغيل في مقدّمة اليخت، يُحدّق في الأفق كما لو كان يحدّق في حدود الكون و نهاية العالم ..

رجل في أوائل الستين مع قلب طفل لا تنفك المفاجآت تدهشه ..

قبطان عركته البحار فأعادته وليداً للريح ..

يتكلل وجهه بخشونة الملاحين ونبل العارفين ..

شَعره الرمادي يرقص مع الهواء مثل شراع أفلته الزمن ..

وعيناه الرماديتان تتسعان وكأنهما تسجلان مشاهد الحياة للمرة الأخيرة.

بيده خريطة يقودها أكثر مما تقوده ، وبقلبه حنينٌ... حنينٌ لابنٍ لم يُخلق، لم تهبه إياه الحياة، لكن ربما قدّر أن يُولد من رحم الجليد، أو من فتحة سريّة في هرم منسيّ ، كسر لا شبيه له ..

إلى جانبه، جلست **ماريانا غونزاليس**، زوجته، ورفيقة الرحلة الطويلة.

امرأة تحمل في جسدها تعب الأعوام، وفي عينيها يقين العالمات اللاتي جرّبن كل شيء إلا الاستسلام.

شَعرها الكستنائي مضمومٌ خلف رأسها كمخطوطة قديمة لا تُفتح إلا بحرص، وبشرتها غسلتها شمس الأندلس حتى غدت لجيناً من فضة طليطلة.

كانت ترتدي معطفًا رماديًا محبوكًا بخيوط من الصوف الألبكي، و تكتب ملاحظات في دفتر جلدي صغير، كمن لا تزال تُدوّن التاريخ حتى وهي على وشك أن تصطدم به وجهًا لوجه.

في أعماقها جرحٌ قديم لم يندمل ..

يدعوه الطب **الرحم ذا القرنين ..**

تشوّه خَلقيّ نادر حرمها الإنجاب، جعلها امرأة كاملة في كل شيء... إلا في ذلك الذي تشتاقه الأنوثة سراً.

لكنها لم تيأس،

فقد وهبت حياتها لولادة من نوع آخر :

ميلاد الاكتشاف.

الآثار، المخطوطات، الرموز، الحضارات المدفونة...

كلّها كانت أطفالها البديلة.

وحين أمسكت بين يديها **مخطوطة فوينيش** التي تمكنت أخيراً من فك شفرتها بعد صراع فكري لعقود، و التي أشارت في أحد نصوصها الغريبة إلى **هرم السوورث** في القطب الجنوبي كموطن لسر يفوق الخيال ، شعرت عند لمسها بشيءٍ يشبه الركلة الأولى في بطن أمّ... و كأن سراً خطيراً على وشك الولادة من رحمها .. ربما بمخاض عسير كما تتكهن التوقعات و توحي الأحداث الغريبة المتوترة و الحساسة حول العالم هذه الأيام ..

معهما على السفينة، كان هناك ثلاثة مساعدين انتقوا بعناية، كأنهم قطع من رقعة شطرنج.

الأول: **تياغو**، خبير جيولوجي برازيلي، متخصّص في طبقات الأرض المجمدة ..

وجهه يشبه صخرة ترتجف ..

وعيناه دائمتا الرمش، كأنه يطارد أسرار التربة من بعيد.

الثاني: **رافائيل**، مهندس تقنيات استشعار حراريّ من هولندا ،

يستطيع بعينيه المدعّمتين بكاميرات أن يرى تحت الجلد، وتحت الجليد، وتحت القشور.

أغوته رحلة القطب الجنوبي و كأنه يضمر رجاءً خاصاً له ألا يغرق بلاده ذات الأراضي المنخفضة ..

أما الثالث: **عبد الله جاو** ، سنغالي الهوية، متخصص بالاتصالات ونجاة الطوارئ ..

رجل الصلاة والبوصلة ..

يحمل المصحف في جيبه الأيسر، ويبتسم كلما ذكرت له الساعة ، لأنه – كما يقول – يؤمن أن كل ساعة تقرّبنا من الساعة الكبرى ..

كان هؤلاء الثلاثة يعلمون أنهم لا يذهبون لرحلة علمية عادية كغيرها ، بل لمواجهة هامش النهاية، حيث يتلامس الأسطوري مع المادي، ويُبعث ما ظنّ الإنسان أنه لن يُبعث.

اليخت كان مجهزًا بكل ما يلزم :

مولدات حرارية، بدلات مقاومة للجليد، أجهزة تحديد مواقع بالأقمار الاصطناعية، خيم قابلة للدفن في الثلج، وأطنان من المؤن والمياه.

لكن فوق كل ذلك،

كان هناك **إيمان مشترك** بجمعهم**...**

بأن ما ينتظرهم في الهرم، ليس اكتشافًا فحسب، بل امتحانًا أو على وجه أكثر دقة نتيجة امتحان السماء للبشر الذي تعاقب على مدار آلاف السنين ..

بدأت الأمواج تتلاشى، كلما اتجهوا جنوبًا، كان الصمت يُصبح أثقل... والبرد يُصبح أكثر أناقة، كما لو أن القطب نفسه يتأنق لاستقبال زوّاره القادمين من بعيد.

ميغيل لا يزال في المقدمة ..

يمسك بالخريطة ..

ينظر فيها لا بعينيه، بل بكامل حواسه.

يرى فيها مجهولاً على وشك التعريف،
و يقلب في عقله احتمالات المصير ..

قال بصوت خافت لماريانا :
= لو عدنا... سنكتب التاريخ.
ولو لم نعد... سيكون الجليد شاهد قبرنا ..

أجابته بابتسامة غامضة و نبرة تثق بنبوءة تتسلق جدران قلبها :
= إن عدنا، لن نعود كما نحن .. بل لن يعود العالم كما كان ..

*****

عندما تغير الطبيعة مزاجها ..

في الأيام الأولى من الرحلة، بدا المحيط الأطلسي كأنه نائم في حضن ذاته، مستلقٍ بهدوء الأزمنة القديمة على وسادة من الزبد، تنبعث من صدره أنفاسٌ زرقاء عميقة، لا ضجيج فيها سوى موسيقى الماء المتكرّرة بإيقاعٍ سرمديّ. كان البحر لوحة مائية رسمها فنان أعمى البصر متسلّحاً بالبصيرة، وأهداها إلى المجانين الذين يبحرون دون وجهة نهائية سوى المجهول.

كان سطحه الساكن يلمع تحت أشعة الشمس الصباحية كمرآة نُسجت من ندف الفضة، لا أمواج فيه إلا تموج الأحلام وهي تهمس في أذن البحّارة.

و فوقه تناثرت نوارس بيضاء، تخترق الهواء بجناحين يُشبهان صفحات كتاب مفتوح على مصيرٍ غير معلن. كانت النوارس

تصرخ، لا خوفاً ولا جوعاً، بل لأنها خُلقت لتُرافق السائرين في البحار، كأنها جنود سماويون في زيّ طيور.

تحت هذا السطح المتألق، عالمٌ لا يقلّ بهاءً...

دلافين رمادية رشيقة تقفز بزهوٍ قرب اليخت كأنها تستعرض مهاراتها أمام الغرباء و بينها ظهر دلفين زهري اللون أثار دهشة الجميع ، لكن تياغو البرازيلي أخبرهم أن دلافين الأمازون تتميز بلونها الوردي الغريب و ربما ضل هذا الدلفين طريقه عن موطنه العذب ليجد عائلة أخرى تتبناه وسط ملوحة الحياة .. كانت الدلافين ترافقهم كل صباح، تظهر من العدم، تلمع في الهواء، ثم تهبط كحرفٍ ناعم على صفحة ماء.

كان ميغيل يبتسم حين يراها، و يهمس :

(هذه رسائل مطمئنة من المحيط. إنه يُحبّنا حتى الآن ...)

لكن الحب في أعماق المحيط ليس بريئًا و لا صادقاً دائمًا...

لذا قيل في التراث : (**البحر غدار**) ..

فبعيدًا قليلاً عن الدلافين، كانت القروش الرمادية تسبح ببطء، كما لو أنها قتلة مأجورون غير مرئيين، تتبع القافلة من بعيد، لا تهددها بشكل صريح لكنها لا تتركها و كأنما تنتظر نقطة الضعف أو لحظة السهو و الخطأ كي تنقض بأنيابها ..

كانت تلك الكائنات تذكيراً خفياً بأن وراء كل جمال، كمين...

وراء كل سكون، احتمال...

وأن هذا البحر، وإن بدا ودوداً، قد يُحوّل ملامحه في لحظة..

كانت أشبه بتحذير من القدر أن الحياة مغامرة لا تستقيم على حال ،

و أنه خلف كل منعطف جميل .. مفاجأة سوداوية تقف بترقب ..

و هذا ما كان .. في اليوم السابع من الإبحار، ومع اقتراب اليخت من عرض المحيط الجنوبي، حدث التبدّل الأول.

بدأت السماء تتغيّر ..

ببطء... ثم بسرعة مرعبة.

تلبّدت الغيوم بلونٍ رماديّ كثيف، كأنها لفافة دخان خرجت من فم شيطان.

تسارعت الرياح، وراحت تلطخ وجه المحيط بخطوط غضب.
تهاوت درجة الحرارة فجأة، واختنقت الشمس خلف جدار سميك من الضباب الكثيف، حتى تلاشت كما لو أنها لم تكن هناك أصلاً.

صرخ عبدالله من قمرة اليخت الرئيسية :

= الرادار يشير إلى عاصفة من الدرجة الرابعة قادمة نحونا من الجنوب الشرقي ، ماذا عسانا فاعلين ؟!

لكن في تلك اللحظة لم يكن هناك متسع لأي تفكير أو تدبير...

العاصفة كانت أسرع من التوقع، وأكبر من أي استيعاب ، ضربت اليخت كما تضرب المطرقة سندانًا من زجاج.

ارتجّ كل شيء.

تكسرت الأطباق في الداخل، تطايرت الأوراق، ارتطم الرجال بالجدران.

الأمواج ارتفعت إلى عشرة أمتار، كأن كل موجة تنوي ابتلاع السماء، لا السفينة فقط.

صرخت ماريانا وهي تتشبث بسارية المركب :

= إن الأطلسي تحول إلى وحش حيّ... مجنون و غاضب !

و توالت صفعات الطبيعة لمدة ساعتين ..

الأمواج كانت كمخلوقات أسطورية. كل واحدة منها تحمل ذاكرة عصورٍ انقرضت.

كل صفعة على اليخت كانت مثل حكاية موت لا مفر منه.

تطايرت الصواري، انقطع أحد الأشرعة ..

تداعى السطح الأمامي كما تتداعى جدران قلعة قديمة تحت زحف مغولي ...

رافائيل انهار فاقدًا وعيه.

عبد الله كان يردد آيات من القرآن بصوت مرتجف، و بين كل تكبيرة وتكبيرة تنهيدةُ رجاء.

كان اليخت يتراقص كهندي أحمر على حافة الموت ..

وأيّ رجلٍ في ذاك المكان، في تلك اللحظة، لم يكن يظن أنه سينجو فاحتمالات العبور من جوف الإعصار كلها من أخوات الصفر..

لكن النجاة التي لم تكن بيدهم الآن ...جاءت من مكانٍ لا يُرى، ولا يُطلب، ولا يُفسّر.. من القدر الذي يجرح ثم يداوي .. يبتلي ثم يعين

تلاحقت عقارب الساعة في صراع منهك من الرعب و الإعياء ، ثم بدأت العاصفة بالانحسار تدريجيا بدون مقدمات .. و كأن السماء المريضة تقيأت ما في جوفها على الأرض حتى استراحت ..

الريح توقفت فجأة... كما لو أن كفًّا غير مرئية صفعتها بالمثل و لجمتها ..

تفرّق الضباب، وتشقّق صدر الغيم ..

أشرقت نجمة واحدة فوق جسد اليخت المنهك، كأنها كانت هناك لتشهد، تكتب، تُنقذ و تبلسم جراح الساعات العصيبة ..

أخيرا صمت مطبق .. السكون الأجمل .. سكون ما بعد العاصفة ..

نجا اليخت.

مُمزّق، لكن عائم.

مُنهك، لكن لم يغرق.

مكسوّ بندوب النجاة، لكنه حي.

خرج ميغيل إلى متن اليخت و نبضه يتهاوى تدريجياً عقب توتر لم يمر به من قبل ، رفع رأسه إلى السماء التي كشفت القليل من سوادها مجددًا، وقال بلسان النبي **يونس** و قد صادق الربّ في أحشاء البحر :

= المعجزة حصلت... لقد نجونا .. حمداً لله ..

لكنه لم يعلم ، و لا أحد علم ، أن نجاتهم كطاقم متواضع ، لم يكن إلا لغاية سماوية واحدة :

أن يكسبوا بضعة أيام أخرى قبل أن يشهدوا نهاية الجميع ..

في تلك اللحظة ..

بدأ العد التنازلي للرحلة .. للمغامرة .. للبشرية ..

لكنه بدأ في قلب رجلٍ واحدٍ أولًا...ميغيل ، الذي عرف أن الرحلة

لم تعد استكشافية، بل قدرية.. لا يرسمونها بخطواتهم بل تحركهم بأناملها الى مجهول ينتظرهم .. عاصفة من نوع آخر .. أشرس و أشد ضراوة .. ليست بانكسارات و لا انهيارات .. بل قيامة من حضيض الخطيئة ..

*****

أرض الجليد و النار ..

بلغ اليخت المتهالك الناجي من العاصفة أخيرًا المياه الإقليمية للقارة القطبية ، و أخذ يشق طريقه بهدوء محتشم عبر **بحر ويدل**، ذاك الامتداد الأزرق البارد من المحيط الجنوبي الذي يعانق غرب القارة القطبية كذراع أم تحتضن رضيعها المتجمد منذ آلاف السنين.

كانت الرياح تهامس الماء بصوتٍ خفيض، كأنها تعرف أن من في اليخت ليسوا سياحاً أو باحثين بل مغامرين يلاحقون أسطورة تاريخية قد تفتح أبواب الجحيم على مصراعيه ..

سكون غريب يخترق كل شيء، سكون لا يشبه النوم، بل يشبه ما قبل انبثاق الخلق.

ومع اقتراب اليخت من **جرف روني الجليدي**، بدا المشهد كأنه تخطيط مسبق من خيال رسّام سريالي.

كتلٌ شاهقة من الجليد ترتفع أمامهم كقصور صامتة من نور، جدران بيضاء نقية كصفحاتٍ لم تُكتب بعد، متراصة على مدّ البصر، كل شقّ فيها كأنه توقيع قديم تركه الإله على حضارة لم تولد.

و ما إن رسا اليخت حتى تغيّر الزمن.

لم يعد للدقائق قيمة، ولا للساعات اسم.

كل ما كان يهمّ هو الخطوة التالية.

الرحلة تحولت رسميا من صفحات مائية إلى مساحات جليدية شاسعة بلا نهاية كما يخيل للعقل ، ومن دفء الحلم إلى صقيع الحقيقة.

وقف ميغيل في مقدّمة المركب، يضع يده على قلبه كما يفعل القبطان حين يصل أرضًا غريبة، و همس :

= ها نحن نبدأ اكتشاف الأسرار من حيث انتهى اكتشاف الكوكب . أهلاً بكم في آخر القارات التي وطأها الإنسان .. أنتاراكتيكا ..

ابتسمت ماريانا و ردت بكلمات ملغومة ..

= إن **خريطة بيري ريس** تدحض هذه الشائعات عزيزي .. هذه الأرض كانت منذ زمن سحيق جرداء بكر ثم حملت جنين حضارات نجهلها ، قبل أن يجهضه الجليد مع تغير المناخ ..

هز الطاقم رأسه ، و أخذو يتلفتون حولهم بانبهار ..مشاهد لم تألفها حدقاتهم من قبل ..

ظهرت لهم **الفقمات**، تتكوّم على أطراف الكتل الجليدية، و تحدّق بعيون سوداء متطفلة في الغرباء الذين يطرقون أبواب اللامعقول.

كانت دهشة الكائنات لا تختلف عن دهشة البشر.

ثم جاء موكب **البطاريق الإمبراطورية**، كأنهم ملوك بلا ممالك، يتمايلون بخطوات ثابتة، و لا يبالون بالكائنات العاقلة التي تراقبهم،

كأنهم أدركوا منذ زمن طويل أن العقل أحيانًا أكثر جنونًا من الغريزة.

أما **الدب القطبي**، فبقي عصيًّا على الظهور، كما لو أنه روح القطب الشمالي التي لا تغادر وطنها، يُخبرهم غيابه بأنهم على مسرح مختلف... فهنا الجنوب فقط، حيث يغيب الملك ذو الفرو الأبيض عن الخريطة ..

أخيراً لامست مرساة اليخت الجرف الجليدي ، ترجلوا مع معداتهم و مؤنهم .. الآن بدأت مغامرة من نوع آخر .. قاعها الجليد و سقفها الثلج .. و لا شيء آخر ..

بدأوا السير على الأقدام في رحلة شاقة لعشرات الكيلومترات، حفاة المعنى، مثقلين بالتجهيزات، تحت سماء فضية خرساء، تراقبهم دون أن تبتسم أو تعبس، كأنها لا تأبه بهم لكنها تحفظ أسماءهم.

الثلوج تكاد لا تنتهي، والأفق ممتد كلوحة بيضاء فارغة، كل خطوة عليها كأنها توقظ ذاكرة دفنت منذ ملايين السنين.

نصبوا خيامهم في الليلة الأولى، يخترقون الجليد بأوتاد الصبر، ويشعلون حرارة المصابيح الغازية كما لو أنهم يشعلون قلوبهم.

كان الهواء نقياً حد السُكر، لكنه يلسع الرئتين بمرارة لا تُوصف.

سماء الليل كانت كالمرآة، تعكس بياض الأرض فلا تعرف إن كنت تمشي فوق السحاب أم تحت القمر.

ولم يكن هناك من صوت إلا خشخشة الثلج تحت الأحذية، وصوت أنفاسهم المرتجفة، وصرير الريح حين تسحب أطراف الخيام فجأة، كأنها تريد تذكيرهم أنهم ليسوا وحدهم.

و كل يوم تلا كان أشبه بحلم يتكرر، مسير نهاري بلا أفق و تخييم

ليلي بلا فرق .. حتى خيّل إليهم أنهم يراوحون مكانهم، بينما يتقدمون في الواقع. داخل الجليد، داخل الصمت، داخل أنفسهم.

ليس هناك من صخب، لا سيارات، لا هواتف، لا أعمدة كهرباء ، و لا حتى بشر نفاهم الفضول أو البحث العلمي إلى أقاصي الأرض ، أو اسيكمو ضجروا من القطب الشمالي فقرروا النزوح جنوباً ..

كان هنالك فقط الوجود النقي، يواجههم بعريه الكامل، ويقول لهم بصوت لا يُسمع :

(لقد وطأتم أرضى الأسرار ... فهل أنتم مستعدون لتجليها ؟)

في هذا الصمت المترامي، وبين البياض الذي لا ينتهي، كانوا يتجهون شيئًا فشيئًا نحو هدفهم المنشود .. كعبة القطب الجنوبي .. الهرم الذي يسكن الجليد و يسكنه في آن معا ... كحجاج يلتهمون التضاريس من كل فجّ عميق ليبلغوا البقعة المقدسة التي تتقاطع فيها الأسطورة والعلم ، الموت والميلاد.

فهل سيفتح لهم الجليد أبوابه ؟

أم سيبتلعهم كما ابتلع آخرين قبلاً ؟

الرحلة ستبلغ مستقرها قريباً... و الوقت، كما بدا، أصبح نافذة لا ترى منها إلا العد التنازلي الكبير.

في الليلة الأخيرة، اتخذ الجميع أماكنهم حول دائرة الخيام، كأنما انصهروا جميعاً في طقسٍ بدائي خارج الزمان والمكان. النار التي أضرموها لم تكن مجرد وسيلة للتدفئة في صقيع القطب الجنوبي، بل كانت كائناً حياً، يرقص لهيبه مع أنفاسهم المتقطعة، ويروي بلغة اللهب قصص الخوف والتوق والتحدّي.

فوق رؤوسهم، كانت السماء كوشاح سماوي هائل، منسوج بخيوط الشفق القطبي الزمردي والأرجواني، حيث ترقص الألوان في هدوء كأنها أرواح قديمة هائمة جاءت لتبارك أنفاس الرحلة الأخيرة .

النجوم تناثرت كحبات ماس على مخملٍ أبدي، وسديم درب التبانة بدا ممتدًّا كطريق للآلهة، أو لعله مرآة مقلوبة لدربهم المتعب نحو الهرم الملعون أو المقدّس، لا أحد يدري بعد.

ضحكات خافتة متقطعة، رشفات من الشاي الساخن، نظرات تائهة نحو اللهب أو نحو السماء أو نحو لا شيء. ومع ذلك، فإن شيئاً غير مرئي كان يربطهم. شيء يهمس في سرهم :

(نحن على أعتاب شيء لم يحدث من قبل، ولن يتكرر مرة أخرى.)

لم يكن أحد يملك إجابة حاسمة عن الخطوة التالية. الخرائط الورقية اهترأت من كثرة الطي، ومؤشر البوصلة يتجه دائماً نحو الجنوب، لكن الجنوب هنا ليس مجرد اتجاه، بل لغز يداعب تلافيف أدمغتهم

أما ماريانا، فكانت تحتضن **مخطوطة فوينيش** كما لو كانت طفلها الوحيد ، تمرر أناملها على جبهته ، تقلب الصفحات ، تعيد قراءة الترجمات و تشرد بخيالها فيما ينتظرهم من مفاجآت ...

أوقدوا نارهم أكثر، شدوا ستراتهم على أجسادهم، ثم جلسوا كالعابدين في ليلة عيدٍ مهيب، وكلّهم يعلمون أن فجر الغد لن يكون شبيهاً بأي فجر مضى. لأنهم، حين يستيقظون، سيبدؤون العبور نحو شيء... ربما يُعيد كتابة التاريخ، أو يُشعل فتيل القيامة.

*****

الهرم الجليدي الغامض ..

في ظهيرة اليوم الأخير من الرحلة ، كانوا قد بلغوا أقصى ما يمكن لقدمٍ بشرية أن تطأه في هذا الكوكب .. بلغوا أخيراً الموقع الذي يهمس به نظام **GPS** ..

توقّفت خُطاهم أمام منظر مهيب و ساحر لا يُشبه شيئاً مما احتوته كتب الجغرافيا ولا حتى خرائط الأقمار الصناعية.

أمامهم انتصب **الهرم**.

لكن (هرم) ليست كلمة تفي بوصف ما رأوه .. هو يشبه أهرامات الجيزة المصرية بالفعل ، لكن بكساء من جليد براق .. لم يكن هنالك أبو الهول بجواره كتميمة تحميه ، لكن الهول الحقيقي بدا ابناً له يجتاح قلوبهم ..

بدا الهرم وكأنه جدار يفصل بين عالمين، بعلو يطعن السماء، وعرض يكاد يلتف على الأفق. لم تكن عليه ندبة واحدة، ولا حبة ثلج تتجاسر على البقاء فوقه، كأن الجليد ذاته يخشاه. سطحه النقي كالمرايا كأنه صقل بالليزر، يعكس الوجوه لا على حقيقتها بل كما تراها الأرواح. تهادى الضوء عليه فبدا كأن الزمن نفسه ينكسر عليه، ينعكس، أو يتبخر.

كانت ماريانا تمشي ببطء متناهٍ يليق برهبة المكان و المنظر ، كما لو أن خطواتها على هذا الجليد تُدوَّن في سجلٍ أبدي .. تذكرت مباشرةً عندما رأت الهرم ، هرماً أثرياً صغيراً أجرت عليه دراسات مطولة منذ سنين .. يعرف **بهرم بن بن** أي المشع و المتلألئ ، و يعتبر من عجائب القدماء المصريين ، هو هرم على نقيض هذا الهرم العملاق .. صغير للغاية كمجسم أسود اللون مع خصائص مغناطيسية .. و قد حير العلماء لآلاف السنين ولم

يتمكنوا من حل لغزه الا بعد صعودهم إلى الفضاء ، إذ إنه مصنوع من الحجر الأسود ولكنه ليس حجراً عادياً لان كل مكوناته ليس لها وجود على وجه الأرض .. هذا الحجر الأسود الحديدي لا يتواجد الا في الفضاء في النيازك الفضائية ، تماماً كحجر الكعبة الشهير، وهنا ظهر اللغز الثاني بأنه حجر حديدي صلد جداً وصعب التشكيل والحفر ولكنه ليس صعب الكسر، فكيف تم قطعه بتلك الدقة في الزوايا والانحرافات بدون عيوب أو تهشيم ؟ وكيف تم صقل وجوهه بهذه الجودة و الدقة كحال هرم إلسوورث أيضاً مع فرق الحجم الهائل بينهما ؟؟ .. وهنا يطل برأسه اللغز الثالث وهو كيف تم النقش بتلك النقوش الدقيقة جداً على أوجه الهرم ، حيث أكد العلماء عجز أية أداة سواء قديماً أو حديثاً من نحت تلك النقوش إلا إذا كانت أداة قطع ليزرية و هذا مستحيل في تلك الحقبة التاريخية إلا إن كان للفضائيين دور في تشكيل هذا الهرم !! لنصل إلى آخر لغز وهو أنّ الحجر الاسود الحديدي النيزكي بفضل تركيبه ومكوناته يتمتع ببث طاقة كهرومغناطيسية في محيطه تجعل كل من يقترب منه يشعر بالراحة النفسية والصفاء الشديد ويؤثر على طاقة الإنسان فيزيل ما يشعر به من ألم في أي منطقة من جسده (بنفس مبدأ إسورة الطاقة التي يتم ارتداؤها الآن ولكن بطاقة عالية جداً تؤثر في أي عدد مهما كان بمجرد وجودهم في محيطه).. إن مشاعراً مشابهة من السكينة تغمر قلبها الآن و هي تواجه هذا الهرم الضخم ..

بيدٍ ترتجف من الدهشة، لا من البرد، أخرجت ماريانا مخطوطة فوينيش من حقيبتها، تلك الصفحات المشفرة بلغة غير معهودة من قبل ، صمتت قرونًا حتى نطقت من خلال خوارزميات الذكاء الاصطناعي... نطقت لا بترجمة ، بل بجملة يتيمة :

بوابة الهرم المخفية ..

أخذت تحدق في الرموز الغارقة في الغموض، في التعاريج التي بدت كأنها خرائط للروح، في الدوائر التي لا تنتمي إلى رياضيات البشر. ثم بدأت تتجه بخطواتها نحو الوجه الجنوبي من السد، حيث كانت ترجمة المخطوطة توحي بوجود ما لا يُرى بالعين الشاردة .. بل بالعين التي تعرف عما تبحث .. تؤكد وجود **عين مفردة** محفورة في جدار الهرم كما لو كانت على سحنة قرصان أعور ..

لوهلة شك لم يكن هنالك شيء ظاهر للعين... حتى تلاعب الضوء الباهت في لحظة خاطفة، فانكشفت .. عين منحوتة بعمقٍ في الجليد، على ارتفاعٍ لا يلتفت إليه العابرون بلا مبالاة ، بل يقتنصه الساعون إليها بالتحديد ، عين واحدة، ضخمة، بلون البحر ساعة المغيب ، كعين الإعصار الذي باغتهم في رحلتهم .. بدت و كأنها تراقبهم من عوالم أخرى ، و حدقتها ترمش في سكون، لا بحركةٍ فعلية، بل بطاقة خفية تُحس ولا تُرى.

اقتربت ماريانا، وقلبها يخفق كما لم يفعل يومًا. مدت أصابعها نحو حدقة العين، وضغطتها بثبات، كما أمرت المخطوطة. لم تكن لمستها قوية... لكنها كانت عميقة و مطولة ، كما لو لامست وعي المكان ذاته.

وفجأة...

اهتزت الأرض.

لا كما تهتز التربة تحت زلزال، بل كما لو أن الحقيقة ذاتها بدأت تتفسّخ. ارتجت طبقات الجليد تحت أقدامهم، تصدّعت كما في الأساطير، وتسارعت أنفاس الوجود ذاته .. الهواء تغيّر، صار أثقل، أقدم، أشبه بأنفاس مومياء فُتحت نعشها لأول مرة منذ آلاف السنين.

ومع هذا الرعد الذي لا صوت له، انفتحت البوابة.

لكنها لم تكن بوابة كغيرها ..

كانت محرابًا، عرشًا، صرحًا من حجرٍ سماوي. عشرة أمتار عرضًا، عشرون مترًا ارتفاعًا، مزخرفة برموز تنبض بإضاءة خافتة كأنها وريد كوني. حجارتها كانت فيروزية مسدسة على غير عادة الجليد، متوهجة بحمرة غائرة، والجو حولها كان أكثر دفئًا، وكأن شيئًا حيًّا يتنفس خلفها.

تبادلوا النظرات... ميغيل، ماريانا، الطاقم.

كأن أحدًا ما قد ضغط على مؤقت الزمن في لحظة يتجمد فيها الحاضر وتكف الأرض عن الدوران.

همس ميغيل، بعينين تلمعان أكثر من الجليد :

= المخطوطة لم تكذب ، و الذكاء الاصطناعي لم يتحامق .. لحظات و سندخل التاريخ من أوسع أبوابه .. من بوابة الجغرافيا المطرزة بأسرار الوثائق و المخطوطات .. فما الذي ينتظرنا خلف هذه البوابة ؟!

*****

الأعور الدجال ..

كان مدخل الهرم أمامهم، منحوتًا في صخرٍ لم يعرفه الجيولوجيون من قبل، حجارة ملساء مسدسة لا تنتمي إلى زمن الفراعنة و لا المايا و لا غيرهم ، لا تُشبه أساليب النقش المعروفة، بل تنبض بنَفَس آخر، كأنها نُزعت من قاع كوكب غريب.

وقف ميغيل عند العتبة، يحمل المصباح الكاشف، يحدّق في النقوش التي غطّت الإطار: عيون كثيرة، كلها مفتوحة، كلها تراقب الداخل

دون أن تطرف.. طيور الهدهد .. عروش من ذهب ..

= هل ندخل ؟

تمتم رفائيل خلفه..

لم يردّ أحد.

لكن ميغيل اتخذ الخطوة الجريئة .. خطا إلى الداخل و من خلفه دلف الجميع عبر الفتحة. لم تكن بوابة تقود إلى دهليز واضح، بل ممر ضيق تنكمش فيه الأرواح قبل الأجساد، جدرانه تنبض بلون أزرق مائل إلى الرمادي، كأنها تتنفس. الهواء في الداخل لم يكن ساكنًا، بل يحمل تردّدًا خفيًا، موجة غير مسموعة تلامس الجلد وتخترق العظام. كان الظلام أملسًا، كثيفًا، لا يبدّده الضوء بسهولة، كأنه ظلام يعرف نفسه، ويرفض الغياب.

لم يكن هناك سلالم و لا ابواب . فقط شبكة دهاليز متشعبة كمتاهة لا مخرج منها ، كأنهم ينزلقون في لولب. الجدران بدأت تضيق، ثم تتسع، ثم تلتف بلا منطق، حتى فقدوا الإحساس بالاتجاه. كانت ماريانا ترسم المسار في دفترها، لكن كل إشارة كانت تُعيدهم إلى نقطة تبدو مألوفة، أو تُقذف بهم إلى ممر لم يروه من قبل.

= هذه ليست هندسة بشرية...

تمتمت وهي تحدّق في سقفٍ تتدلّى منه أشكال تشبه لُقىً عظمية، أو ربما كانت عضوية. لم يُجِبها أحد، فقد بدأ الصمت يضغط على صدورهم كصخرة.

بعد قرابة ساعة من التوهان، انفتح الممر فجأة، دون سابق إنذار، على بهو دائري فسيح، تغمره إضاءة خافتة لا مصدر لها. أرضيته من صخر أملس كأنه مصهور ثم تُرك ليبرد في سكينة، وفي

مركزه تمامًا : مائدة حجرية مستديرة، تحيط بها أعمدة متآكلة، وتعلوها من السقف قبة مكسوة برموز لولبية، تتحرك ببطء كأنها تدور حول وهمٍ لا يُمسك.. و عيون تقدح شرراً و طيور الهدهد من جديد ..

اقتربوا، بخطى ثقيلة، من المائدة. فوقها كان هناك مجسم لعين... قابع في المركز، ذكرتهم على الفور بالعين المنحوتة على واجهة الهرم الجنوبية التي فتحت البوابة ، لكنها هذه المرة كانت حيّ أكثر ة. منحنية قليلاً للداخل، تنبض بخيط من الضوء البنفسجي، كأنها تنظر إلى الداخل، إلى الروح.

توقفت ماريانا. حدّقت فيها طويلاً و كأنها تعرفها. ثم تذكرت .. هذه المجسم يمثل إحدى الرموز في **مخطوطة فوينيش** و التي كتب تحتها نص من أربعة سطور على إحدى صفحاتها ..

فتحت المخطوطة بأصابع مرتعشة ، و أخذت تتلو بصوت مرتجف كلمات النص و كأنها تلقي تعويذة و الجميع من خلفها يترقب بفضول و قلق، و ما إن نطقت بآخر كلمة حتى نغير كل شيء ..

ارتجّ الهرم بكامله، لا كزلزال، بل كأن شيئًا داخله كان في حالة سبات ثم تنفّس للمرة الأولى منذ الأزل. انبعث من المركز ضوء دائري، خافت في البدء، ثم اشتد كوميض برق انبعث من جوف الأرض، وارتفعت حرارة الهواء كأن البهو كله يغلي من الداخل.

تراجعت ماريانا، تلهث، ووجهها يشع ببقايا تلك اللمسة. قال ميغيل بصوت خافت :

= لقد أيقظنا شيئًا... أو أحدًا.. كأن المكان مرصود و المخطوطة رفعت الرصد بتلك التعويذة ..

الجدران المحيطة بالبهو، التي بدت قبل لحظة صخرًا أملس

صامتًا، بدأت بالتشقّق. لكن لا صخور تسقط، بل تنشق الأسطح عن بوابات لم تكن موجودة. بوابات بلا مقابض، بلا فواصل، فقط خطوط من النور ترتسم على الجدران وتنفلق، كما تنشق السماء في الكتب القديمة.

ثم، صمتٌ.

يتبعه صوت، كخرير عميق في نهرٍ حجري : خطوات... أو زحف. ومن تلك البوابات، بدأت تنساب المخلوقات.. كائنات لم تُصمم لأعين البشر. أجسادها طويلة مفرطة النحول، جلدها رمادي مائل إلى الفضي، رؤوسها بيضاوية ممتدة كأقنعة منحوتة، وأعينهم بلا جفون، سوداء تمامًا، تحدّق بلا رمش. كانت تتحرك بهدوء مرعب، عشرات منها، تمشي على قدمين، و تحمل ذيولًا طويلة تنكمش وتتمدد.

ارتد عبد الله إلى الوراء وهو يتمتم بآيات قرآنية وكاد يسقط. رافائيل رسم صليبا على صدره، أما ماريانا، فاكتفت بالصمت، عيناها تتسعان بلا رمشة.

ثم ظهر هو.

أطول من الجميع، وأثقل. رجلٌ... أعور. ليس بفقدان عين عادي، بل كان في موضع عينه اليمنى حفرة مضيئة، كأن فيها بئرًا تحترق. وجهه كان مزيجًا بين الحكمة القديمة والخطيئة الخالدة، جبينه عالٍ مشقوق، وشعره داكن ينسدل إلى كتفيه كذيل ليل طويل. كان يحمل عصًا ملتوية، تتوهج بوميضٍ بين الأزرق والنيلي، وكأنها نُحتت من برق متجمد.. احتشد البقية بالعشرات خلفه فاكتظ البهو و الممرات المتشعبة عنه ..

تقدّم خطوة، ثم أخرى. لا أحد تحرّك.

ثم قال، بصوت كأنّه يأتي من أعماق الأرض :

= أنا **زولشام**. زعيمُ من نُفِيَ إلى هنا قبل آلاف السنين. من سجَنَنا وقتئذٍ ؟ نبيّكم... سليمان.

شهقت ماريانا، لم تصدّق أذنيها. واصل زولشام حديثه، صوته أشبه بترتيل صخريّ :

= نحن من الجن .. من جنود السماء. نُزلنا للأرض ، لنكون بخدمة الإله و كثير من الأنبياء حتى جاء سليمان و اتهمنا بالتمرد عليه و توسيع سلطتنا ، و هل هذه تهمة ؟ نحن الأجدر بحكم الأرض .. لم نقبل الطاعة التي فُرضت علينا للبشر.. قال لنا سليمان عندئذ :
سترزحون تحت ثقل القيود في الهرم المرصود، حتى يُفتح عليكم في نهاية الزمان زوجان .

وها قد جئتم بعد قرون ... و رفعتم الرصد الملعون ..

أخفض رأسه، ثم رفعه بعينه الواحدة كأنها تقرأهم، لا بأجسادهم، بل بأرواحهم :

= سوف نترككم احياء .. هذا دين في أعناقنا تجاه من حررنا .. لكن لا تظنوا أن العالم سيبقى كما هو بعد اليوم .. لقد انتهت أعمار الراحة. نحن الآن ملوك الأرض... نُنفّذ قضاء السماء.

صرخ تياغو :

= عن أي قضاء تتحدث ؟

ابتسم زولشام ابتسامة باردة وقال :

= أنا رسول آخر الزمان. أنا... أعين الله على الأرض.

ارتجّ جسد ميغيل عند سماعه لهذه العبارة. ارتسمت في ذاكرته

صور من الطفولة : أحاديث جدّه، كتبٌ دُفنت تحت الغبار، وكلها كانت تحذّر من **دجال أعور**، يدّعي الرسالة، ويملأ الأرض فسادًا في نهاية الزمان ... و في الأديان السماوية هذه من علامات قيام الساعة ..

لكن قبل أن ينطق، كان زولشام قد أعطى إشارته بعصاه و انسل جيش الجن كريحٍ عبر البوابات، خارقين جدران الزمان والمكان.

في حين بقي الطاقم في البهو، والهواء من حولهم خالٍ من الحركة، كأن العالم كله حبَس أنفاسه في انتظار ما سيأتي.

*****

التعويذة المضادة ..

في البدء، لم يكن الاجتياح صاخبًا.

لم يكن كجحافل تزحف، ولا قنابل تُلقى من السماء، ولا دبابات تجتاح المدن. بل انتشر جيش الجن كما يأتي المرض، كهمسةٍ في جسدٍ محموم، كظلٍ يتسلل تحت الأبواب حين لا ينتبه أحد.. و بدأوا بغزو جنوب الكوكب من الشرق رافعين رايات سوداء تنذر بالخراب .. و ذلك لم يكن بعسير على من نقل عرش بلقيس قبل أن يرتد الطرف ..

في **أستراليا**، بدأ كل شيء عند تخوم الصحراء الكبرى. راعٍ من السكان الأصليين رأى أفق الأرض يُصدّع بلون أسود داكن، كأن الليل انبثق نهارًا من جوف الحصى. اقتربت منه كائنات ذات رؤوس بيضوية وذيول متذبذبة، لم تكن تلمس الأرض، بل تطفو كما تطفو الأوهام في عين النائم.. و بتعويذة واحدة أغشي عليه بلا حراك ..

وفي اليوم التالي، كانت **بيرث** بأكملها قد فقدت وعيها.

الناس لا يصرخون. بل يسقطون ببساطة. يتوقفون وسط الكلام، يحدقون إلى السماء، ثم يسقطون، كدمى تُقطع خيوطها. انتشرت العدوى في الصمت، لا تُقاوم، لا تُفهم. ومن لم يسقط، أصيب بالذهول أو فقد ذاكرته، أو رأى رؤى غريبة عن مدن لا يعرفها، وممالك من نارٍ وماء.

في **سيدني**، شاهدت الشرطة طيفًا عملاقًا فوق دار الأوبرا. قال شهود إنهم سمعوا صوته في عقولهم، لا آذانهم، وهو يهمس :

= نحن الرَدُّ القديم على قسوة الإنسان.

كانت **بريسبان** آخر من سقط. بعدها اختفى البثّ كليًا من القارة، ولم تُسمع منها إلا همسات عبر الراديو، بكلمات لا تُترجم، أصوات أطفال يضحكون بين ترددات الموت.

ثم جاء الدور على **الجنوب الإفريقي**.

في الليلة الأولى، أُضيئت سماء **كيب تاون** بلون أحمر لا يشبه الغروب، بل كأن الشمس انفجرت تحت الأفق. سُمعت ضوضاء منخفضة، كمواء جماعي لملايين القطط الجائعة. ثم بدأ المطر... لكنه لم يكن ماء.. قطرات لزجة، تشبه الزئبق، تهبط وتترك آثارًا متوهجة على الأجساد. من أصابتهم، توقفت قلوبهم أو احترق لسانهم أو فقدوا الكلام إلى الأبد.

تقول ممرضة من **جوهانسبرغ** – قبل أن تُفقد – إن الأطفال بدأوا يرسمون رموزًا غريبة على الجدران دون أن يتعلموها.

انتشر الزحف شمالًا: **بتسوانا** ، **ناميبيا** ، **زيمبابوي** ، **أنغولا**. تسارعت العدوى كما يتسارع الجنون في حضن الذاكرة. كانت المدن تتعفن بأرواح لم تَعُد بشرًا. الشوارع فارغة، لكن النوافذ

مليئة بعيون منطفئة على أجساد خاوية ..

وفي **أمريكا اللاتينية**، لم يكن الهجوم ماديًا، بل سحريًا.

بدأ في جنوب **تشيلي**، عند **غابات باتاغونيا**، حيث شوهدت مخلوقات تمشي فوق المياه، تصعد من **بحيرة فياغوستو** بأجنحة خفيفة وذيول ملتفّة. في **أوشوايا** ، أقصى نقطة مأهولة جنوبًا، توقفت الساعات كلها عند الرابعة وأربع وأربعين دقيقة فجرًا، وسمع الجميع – من دون مصدر – صوتًا واحدًا يقول :

= انتهى زمانكم و جاء زماننا .. مملكتنا ستقام من الجنوب ، و الشمال سيأتيه الدور قريباً ..

في **ريو غراندي** ، عانق مزارع عجوز واحداً منهم، فبدأ الكائن يتكلم بلغة منقرضة، ثم اختنق الراعي بكلماته ومات وهو يبتسم.

بوينس آيرس قاومت لأيام، لكن الناس بدأوا يرقصون في الشوارع دون توقف كما لو أنّ طاعوناً غامضاً أصابهم ، في طقوسٍ لا يمكنهم مغادرتها. البعض احترق من الداخل، وآخرون بدأوا يسيرون نحو البحر بلا سبب، ويختفون.

ساو باولو، مونتيفيديو، ليما ، كلها تبعت.

اختفت الحدود. و بسط الجن سيطرتهم على جنوب الكوكب..

وصوت الأعور زولشام – الذي صار الآن يُبَثّ من كل شاشة – يقول :

= أنا رسول من لا يُسأل. أنتم من طرق الباب .. و نحن من يجيب بطريقته .

كان الناس، في نصف الأرض الشمالي، يشاهدون... و لا يصدقون.. غارقين في دوامة من الرعب و القلق

حين غُزيت أستراليا، ثم جنوب أفريقيا، ثم جنوب أمريكا، لم تُصدر الحكومات سوى بيانات مرتبكة، متأخرة، مشوّهة. لم تكن تعلم، أو لم تكن تريد أن تصدّق. ولكن عندما بدأ الجن يظهرون في شاشات الأخبار، يتحدثون بكل لغات الأرض، ويلقون تعاويذهم في بثّ مباشر... تغير كل شيء.

في مجلس الأمن، للمرة الأولى، اجتمع العالَم دون اعتراضات، دون فيتو، دون نقاش في الجدوى. جلست الولايات المتحدة إلى جوار الصين، وجلست روسيا إلى جانب بريطانيا و فرنسا، وتحدث ممثل الكاميرون بلسان الجميع :

= إذا سقطنا فرادى، سيسقط الجميع. يجب أن نقاتلهم معًا.

وأُطلقت العملية الكبرى :

درع البشرية.

تحرّكت الأساطيل من خمس محيطات. جُهزت الأقمار الاصطناعية ببرمجيات مخصصة لرصد الترددات غير المعروفة. خُصصت الطائرات الحربية لملاحقة الظلال أكثر من الأجسام. شُحنت أطنان من الأسلحة غير التقليدية ، بعضها صوتي، بعضها مغناطيسي، وبعضها طوّره علماء تحت الأرض منذ سنوات ولم يُكشف عنه قط.

في مركز العمليات العالمي تحت **جبل شاستا،** اجتمع القادة والعلماء والروحيون من كل دين، وُضعت الكتب المقدسة على الطاولة إلى جانب مخططات المعارك. كان المزيج مرعبًا : الدين والعلم في خندقٍ واحد، الخرافة والمعادلات الرياضية تتشاركان شيفرة الخلاص.

لكن .. ما من شيء نفع .. العلم رغم أنه بلغ الذروة وقف مكتوف

الايدي امام اسلحة لم يصنعها البشر .. امام طاقة مجهولة .. امام لعنات و تعويذات .. امام سحر و ماورائيات ..

و في فجرٍ رماديّ على تخوم مدينة **أولورو** – وسط القارة الميتة – ظهر الزعيم الأعور. واقفًا فوق صخرة، خلفه السماء تنقلب إلى رماد .. صرخ بتكبر جاء من أعماق ابليس و هو يرفض السجود لآدم :

= هل تظنون أنكم قادرون على الانتصار ؟ أنتم لن تهزموا أحدًا... بل تجربون فقط عضّ السحاب.

و عندما رفع **العلم** الراية البيضاء في معركة غير تقليدية .. بقي **الدين** يصارع وحيدا في الميدان ..

من خلف التلال، كان يتقدم جيش لا راية له، بقيادة رجلٍ من **مالي**، يقول إنه رأى الأعور في رؤيا متكررة منذ الطفولة و علمه طيف النبي سليمان كيف يهزمه . في يده لم يحمل سلاحاً ، بل مخطوطة قديمة : دعاء على لسان النبي سليمان مفعم بلفظ الجلالة و التعوذات ..

قرأ التعويذة بخشوع و كأنه يطلق عليهم آخر رصاصة في مسدس البشرية ..

لحظات و تغير كل شيء .. انقلبت الموازين وبدأ الجن ينكمشون. واحدًا تلو الآخر، كأنّهم يُسحبون من داخل أجسادهم إلى نقطة سوداء. تلوى زولشام، وصرخ مهزوما يائسا لأول مرة و غروره يتشظى تحت عرش الإله الذي لم يتزحزح من مكانه ، ثم هجم عليه الضوء من كل الجهات.

لم ينفجر.

بل تفتّت.

عظامه تناثرت كغبارٍ يتبخّر، وصوته خفت، ثم اختفى.

وبقي الصمت.

صمت طويل، صامت كأن الأرض نفسها تستمع لنبضها و لحكم الاله ..

ثم بدأ الناس يستفيقون.

المدن تستعيد صوتها.

الهواء يعود نديًّا.

وبينما كانت الشمس تطلع من جديد على عالم مكسور… كان **ميغيل** في القطب الجنوبي يتابع اخبار المعركة بين الجن الذي حررهم بلعنة فضول منه و بين البشر ..

ابتسم قليلا عقب انتهاء الحرب و امحاء الجن ..لكنه سرعان ما استرد عبوسه و قال :

= هذه ليست نهاية الحكاية.

بل نهايتها الأولى.

صراع العمالقة

قرغيزستان / بيشكيك

2471 م ..

العاصمة القرغيزية **بيشكيك**، مدينة متوارية بهدوء تحت ظلّ سلسلة **جبال تيان شان**، تغفو بين طيات الطبيعة كعروس خجلى لم يُكشف عنها النقاب بعد. سماؤها مزروعة باللون البرتقالي المتوهّج، والهواء يحمل رائحة الغبار المتصاعد من سهول آسيا الوسطى، ممزوجًا بنسيم يأتي من قمم مكلّلة بالثلوج.

في الأفق، ظهرت كطائر معدني مهيب، طائرة **SKYWING 5984** الخاصة، مملوكة للملياردير الفرنسي المغامر **باسكال دوبويسون**، الموصوف في الصحافة العالمية بأنه جامح الروح ومروض الجغرافيا .. لونها الخارجي كان أبيض لؤلؤي مع خطوط فضية تنساب على الجانبين، وتتلألأ تحت شعاع الشمس كأنها جزء من قمر صناعي قرر النزول إلى الأرض.

داخل الطائرة، جلس باسكال في مقعد جلديّ بلون العاج، يحمل في يده كأسًا من الشاي الأخضر، يتأمله بنظرة شاردة. على الرغم من ثرائه الفاحش، كان مظهره بسيطًا بشكل يخدع؛ سترة من الكشمير الرمادي، وشعر فضّي مصفف بعناية، وعينان لا تهدآن عن تقليب المجهول إلى أسئلة.

إلى جانبه جلس **جوليان**، مساعده اللوجستي، شاب في أواخر الثلاثينيات، أنيق بلا مبالغة، يحمل حاسوبًا لوحيًا يراجع عليه الخرائط وبيانات الطقس. أما المقعد الخلفي، فقد شغلته **لارا**، باحثة في أسرار الكتب السماوية و جذورها التاريخية، ذات شعر حنائي مربوط خلف رأسها، تحمل دفتر ملاحظات وتدون تأملات متوترة

حول **العين الحمئة** التي ورد ذكرها في القرآن وارتباطها **ببحيرة إيسيك كول** أو ما يعرف بالبحيرة الدافئة.. و في مؤخرة الطائرة جلس ثلاثة شبان بمهام موزعة بدقة و خلفهم دليل محلي و مترجم لغوي ..

حين لامست عجلات الطائرة المدرج العسكري الخاص في بيشكيك، لم تكن المدينة قد استيقظت بعد على قدوم من سيحفر اسمه في أساطيرها.

في زاوية من المطار العسكري، انتصبت مروحية عسكرية معدّلة من طراز **SPIDER V-77** بلون رمادي داكن، مزوّدة بتقنيات الملاحة الحرارية ومعدات الطيران في البيئات المتطرفة. كانت مجهزة بنوافذ واسعة تسمح للمسافرين بمشاهدة المناظر الطبيعية التي لا تشبه إلا نفسها؛ بحيرات كأنها دموع جبال، ووديان منحوتة بإزميل الزمن.

ارتدى باسكال معطفًا مبطنًا بالفرو الطبيعي، وألقى نظرة إلى الجبال التي تلوح من بعيد كجدران بيضاء تحيط بسماء زرقاء. قال بهدوء :

= نحن لا نذهب إلى مكان فقط... نحن نذهب إلى نقطة نسيها الزمن ودوّنها الوحي.

أجابه جوليان بابتسامة خفيفة :

= و بين أيدينا ما لم يكن لدى الإسكندر المقدوني... الذكاء الاصطناعي، والخرائط الحرارية، وأقمار الرصد.

لارا همست، وكأنها تحادث نفسها :

= و قد يكون ما ينتظرنا... ما لم ينتظره بشر.

صعدوا جميعًا إلى المروحية.

كانت المقاعد الجلدية مريحة على غير عادة الرحلات الاستكشافية، والمقصورة الداخلية عازلة للصوت تقريبًا، لا يسمع فيها سوى أزيز خافت كنبضات الأرض في مهدها.

أقلعت المروحية ببطء، ثم ارتفعت بسرعة كأنها تخترق الطبقات التاريخية فوق **جبال قرغيز ألتاي**. تحتهم، تمددت الأرض كرقعة شطرنج سريالية من جليد وسهول وبرك متجمدة. جبال شاهقة، بعضها مغطى بالثلج الدائم، وبعضها يلمع كالسيوف تحت شمس العاشرة صباحًا.

استغرقت الرحلة قرابة الساعتين، تخللتها صمت مهيب، كل واحد منهم كان غارقًا في أفكاره. كانت الأرض تنسحب تحتهم بهدوء، بينما أخذت المنحدرات تقترب شيئًا فشيئًا من أجنحة المروحية، كأن الجبال تسحبهم إليها.

ثم بدأت ملامح البحيرة تظهر من بعيد.

إيسيك كول... البحيرة الدافئة التي لا تتجمد. زرقتها كانت أقرب إلى زرقة النبوءة، ساطعة وسط الإطار الأبيض الذي يحيط بها. كانت تشبه عينًا كونية نائمة في حضن الجبال، تحدق نحو السماء بصبرٍ عمره آلاف السنين. بخار خفيف يتصاعد من سطحها رغم البرد القارس على نحو مخالف لقوانين الطبيعة و أقرب إلى سحر حواة أو معجزة قديسين، بدت كأنها تتنفس، كأنها ما تزال تنتظر خروج يأجوج ومأجوج، أو عودة ذي القرنين.

هبطت المروحية ببطء على رقعة مسطحة قريبة من الضفة الشرقية. ترجل باسكال أولًا، ثم جوليان، ولارا خلفهما و أخيراً المساعدون الثلاثة و الدليل و المترجم . وقفوا بصمتٍ، والريح الباردة تلامس وجوههم بشيءٍ من القداسة.

قال باسكال وهو يحدق في الأفق :

= من هنا تبدأ القصة... على أمل أن تنتهي بانتصار مدوي ..

= سنرى.

أجابت لارا، وهي تضم تقاريرها إلى صدرها كقلبٍ إضافي.

كانت الخطوة التالية... أن يقتربوا من سرّ السد العظيم، الدفين بين جبال بكر ما تزال تحفظ في باطنها ارتعاشة الوحي الأولى.

انتصف النهار فوق بحيرة إيسيك كول ، كانت المنطقة مغيبة تحت ستار من ضباب كثيف، لكن الضباب هنا لم يكن إلا قناعًا مؤقتًا، سرعان ما اخترقته أصداء طائرات الدرون المتقدّمة التي أطلقها فريق باسكال بهدوء يشبه صلاة سرّية في حضرة المجهول. كانت أربع طائرات صغيرة، من طراز **FALCON 58 GW** ، مجهزة بكاميرات حرارية حساسة من الجيل الأخير، تحلق بتناسق أشبه بسرب طيور يتقفى أثر الحكاية.

ارتفعت الدرونات في السماء الهادئة، ثم انطلقت بأوامر مبرمجة مسبقًا عبر جهاز تحكم محمول كان بين يدي جوليان ، الذي ثبت

عينيه على الشاشة كمن يراقب أطيافًا لا تُرى. تلوّنت الشاشة تدريجيًا بأطياف من الأزرق، الأخضر، ثم الأصفر، وأخيرًا تبرقعت بعض المناطق باللون الأحمر الناري ، في إشارة إلى اختلافات حرارية كامنة في باطن الجبل.. استمر الرصد قرابة ساعتين من الزمن .. حتى تمركزت إحدى الدرونات فوق الجرف الشمالي الشرقي المحاذي للبحيرة، في نقطة لطالما بدت عادية لعين الإنسان. لكنها الآن بدت أشبه بجدار غائر في عمق الأرض، مفرغ من الداخل، كأن الصخور نفسها تخفي سرًّا يتنفس تحتها. منحنيات حرارية متناسقة ظهرت على شكل مستطيل ضخم بارتفاع عشرات الأمتار و تتوغل بعيداً في جوف الجبال، وبنية هندسية منضبطة لا يمكن للطبيعة وحدها أن تُبدعها.

همست لارا وهي تحدق في صور الأشعة الحرارية :

= إنها ليست مجرد صخور... هذا أشبه ببنية كهفية، جدار كثيف خلفه تجويف هائل... أو لنقل... سد. خلفه بحيرة من الأسرار ..

نظر باسكال إلى الخريطة القديمة التي تشير إلى منطقة التقاء الجبلين. تطابقت تمامًا مع الصورة الحرارية الحديثة، كما لو أن المخطوطة تعود لهذه اللحظة بالضبط على نحو يثير الدهشة و القلق معاً ...

= هل تظنين أنه... السد المذكور في التراث و الروايات ؟

سأل باسكال بصوت أشبه بالرعشة.

= لا أظن...

قالت لارا بعينين تحدقان في الظلال على الشاشة، ثم أكملت :

= أنا أجزم بذلك.

= بهذه السرعة و البساطة !!

= عندما يحين المخاض فلا شيء يمنع السر الدفين المنتظر من الولادة و ابصار النور ..

في تلك اللحظة، ساد صمت غريب، وكأن الجبال نفسها انحنت لتصغي .. ثم عاد صوت الدرونات يخترق السكون، ترسم في سماء البحيرة خريطة حديثة لأقدم الأساطير، في انتظار من يطرق الباب الذي ظل مغلقًا لقرون.

قبل المساء بقليل، حين كانت الظلال لا تزال تتخبط بين زرقاء ورمادية، انطلق باسكال ومرافقوه بخطى محسوبة نحو موقع الجدار الذي حددته طائرات الدرون .. الطريق لم يكن سهلًا البتة ، فقد تهشمت الصخور الجليدية تحت أقدامهم كأنها تحرس سرًّا موغلًا في القدم و تهدد من يحاول هتكه بالسقوط ، وكلما اقتربوا من الموقع، أحاط بهم شعور ثقيل، شعور لا يشي بالخطر فقط، بل بالرهبة.

ثم ظهر أمامهم...

الجدار.

لم يكن ذلك جرفًا طبيعيًا، ولا كومةً من ترسبات الصقيع أو بقايا انزلاقات أرضية. لقد بدا كأنه صبٌّ إسمنتي ضخم، متماسك، بلون رمادي مشوب بزرقة معدنية باهتة. امتدّ بعرض الجبلين، بلا شقوق، بلا نتوءات، سطحه أملس على نحو مريب. كانت خطوطه

عمودية ومتناظرة، وكأن يدًا بشرية جبّارة قامت بصبه دفعة واحدة منذ آلاف السنين.

همس باسكال، مأخوذًا :

= هذا... يستحيل أن يكون صنيعة الطبيعة !!

هز البقية رؤوسهم موافقين ، و بإيماءة سريعة منه، بدأ الفريق بتجهيز المتفجرات. كان الثلاثة يرتدون سترات خضراء مبطنة، ووجوههم شبه مغطاة بأقنعة واقية من الصقيع. أخرجوا عبوات الـ **C4** من الحقائب، خمسة مستطيلات بلاستيكية بلون الطين المتجمد، وراحوا يثبتونها بدقة عند النقاط الأكثر ضعفًا في الجدار كما حدّدتها الصور الحرارية. استخدموا مادة لاصقة عالية التماسك حتى تثبت على الجدار المتجمد، ثم زرعوا شحنات التفجير الإلكترونية، ووصّلوها بأسلاك تمتدّ خلفهم حتى موقع الاختباء المؤقت.

كان العمل يتم بصمت مشوب بالتوتر. الأصابع ترتجف، لا من البرد فقط، بل من وعي داخلي بأنهم بصدد طرق باب غامض أغلق منذ آلاف السنين.

انتهى الزرع ثم تراجعوا جميعا إلى خلف نتوء صخري كبير، يبعد حوالي مئة متر، وتهيأ الجميع للحظة المنتظرة. أمسك جوليان بجهاز التفجير بين يديه، ونظر إلى باسكال الذي أومأ برأسه إشارة للبدء.

ضغط الزر.

في البداية، بدا كما لو أن الصمت نفسه تحطم ، ثم انبعث صوت خافت، منخفض التردد، يشبه خوارًا من أعماق الأرض... تبعه

وميض حارق، تلاه انفجار متعدد الصدى، لا تصفه الكلمات بقدر ما يُحسّ على هيئة موجة صادمة عبر الهواء. ارتجّت الجبال، تكسّر الصقيع على الأرض تحت أقدامهم، وتناثر الغبار الجليدي في كل اتجاه.

حين انقشع الدخان... كانت هناك بوابة. أو على الأقل، ما يشبه تجويفًا هائلًا انكشف داخل الجدار، تتدلى من سقفه كتل جليدية مدببة كأنها دموع متحجرة.

رمقهم باسكال بنظرة لا توصف، ثم تمتم بصوت خفيض :

= الأسطورة حقيقية .. السد يخفي شيئاً خلفه .. الآن فقط... بدأ كل شيء.

*****

مفاجآت من العيار الثقيل ..

عبروا البوابة كما يعبر المسافرون من زمنٍ إلى زمن، لا من مكانٍ إلى آخر. ما إن خطا باسكال بقدمه داخل الفتحة المتفجرة، حتى شعر كأنّ الهواء قد تبدّل، وكأنّه عبر غشاء رقيقًا يفصل العالم المرئي عن عالم مخبوء منذ آلاف السنين. كان الدخان لا يزال يتلاشى خلفهم حين بدأت عيونهم تتيقّن من هول ما يرونه. لم يكن كهفًا ضيقًا متداعيًا كما اعتادوا في رحلاتهم الاستكشافية، بل فجوة عظيمة تكاد تبتلع الزمن نفسه، محفورة بين صخور الجبال الجليدية خلف الجدار، تُفضي إلى عالم باطني لا تنتمي تضاريسه إلى أي خريطة، ولا تخضع لنمط جيولوجي مألوف.

كان الكهف بطول كيلومترات، يعانق السماء الداخلية كما تعانق القباب الكبرى المعابد البوذية. تجاويفه ترتفع فوقهم حتى بدت كأنها بلا نهاية، تتدلّى منها آلاف الهوابط المتجمدة، أشبه بسيوف معلّقة،

تساقطت منها قطرات المياه بصوت خافت كأنها نبضات قلب المكان نفسه. الضوء لم يكن معدومًا على الرغم من انعدام الشمس: بل بدت جدران الكهف مغطاة بطحالب مضيئة تميل إلى الأخضر المزرقّ، تبث وهجًا باطنيًا رقيقًا، جعل المكان يبدو كمعبد قديم تنبض فيه الأرواح.

بعد مسيرة طويلة في ممر صخري يضيق ويتسع، كانت المفاجأة الأكبر بانتظارهم.

انفتح أمامهم وادٍ داخلي، خفيّ، تمتد على أطرافه غابة بدائية تكسو أرضها طبقات كثيفة من الطحالب والرواسب الطينية. ارتفعت أشجار غرائبية الشكل لا يعرفون لها اسمًا، بجذوع ملتفة وأوراق عريضة، بعضها يضيء من تلقاء نفسه، وبعضها يصدر نغمات خافتة حين تحرّكه الريح. بدا هذا المكان كأنّه بقايا من حديقة أولى نُسيت منذ بداية الخليقة. الغابة بدت شبه استوائية، على الرغم من قربها من القطب، وحرارتها معتدلة بشكل غامض لا يتماشى مع منطق الجغرافيا.

أطلق أحد المساعدين صافرة صغيرة، وإذا بعشرات الطيور الصغيرة ــــ لم يروا مثلها قط ــــ تطير من بين الأغصان، ألوانها كأنها مزيجٌ من الطاووس و طيور الجنة و الببغاوات، وأجنحتها تشع ببريق فوسفوري. لاحظ باسكال أن الأرض زلقة لكنها ليست موحلة، بل كأنّها مبطّنة بطبقة إسفنجية حيّة، تعيد تشكيل خطواتهم خلفهم كما تفعل الرمال، ولكن بصمت مخيف.

ثم لمحوا بحيرة صغيرة تتوسّط الغابة، مياهها بلون الزمرد، لا تتحرك ولا تفسد انعكاسات الجدران الجليدية على سطحها كأنها مرآة مقدّسة.. عالم طبيعي متكامل في قلب الجبال !!

تقدموا أكثر صوب عمق الغابة الكهفية، يحفّهم صمتٌ غير مريح، ليس صمت الغياب، بل صمتٌ ممتلئ، كأنّ شيئًا ما يراقبهم من بين الأشجار... شيئًا أكبر من مجرد حيوان بري، وأبعد من مجرد مخلوق. كانت الغابة تنبض، لا مجازًا، بل فعلًا. كل ورقة، كل جذع، كل قطرة ماء بدت كأنها واعية لوجودهم. خفقت قلوبهم بتسارع، والسكون تخلله زفير متقطع، فيما ظل باسكال يتمسّك بالبوصلة في يده كمن يتمسّك بعقله الأخير.

في قلب تلك الغابة السرية المتوهّجة، وبعد ساعات من التوغل الحذر والأنفاس المكتومة، لمح باسكال ورفاقه شيئًا يتحرك بين ضباب الأشجار الخلفية، شيئًا هائلًا، لا تُدركه العين بالكامل من أول نظرة. أشار بصمت إلى لارا المنكشفة في صدر المشهد ، فانحنت فورًا خلف جذع ملتفّ، بينما تبعها الآخرون بذات الخفة. في ذلك الوادي الغامض داخل الكهف، بدأت خيوط الأسطورة تتجسد:

عمالقة حقيقيون ينتصبون أمامهم ..

قوم يأجوج و مأجوج !!

كانوا أربعة وأربعين عملاقاً، يسيرون في خط بطيء ملتفّ حول دائرة من الحجارة السوداء المتفحّمة، يشعلون نارًا كثيفة دخانها لا يصعد، بل يلتفّ كسحابة خاضعة لقوانينهم. أجسادهم شامخة، ترتفع لأكثر من خمسة أمتار، عريضة بشكل يثير الفزع، عضلاتهم كحبال ملتفة على أعمدة من حجر حيّ. جلودهم بلون الطين المعفّن، وأذرعهم تنتهي بأكفّ مع ستة أصابع طويلة ومفاصل ناتئة وكأنّها أداة قتل لا أكف. رؤوسهم ضخمة مدورة كالمطارق، وجباههم منحدرة بلا حواجب، وعيونهم الصغيرة كجمرتين مدفونتين في صخور الوجه، تلمع بالشرر وتتحرك بخفة

مفاجئة. أنوفهم مفلطحة واسعة، وأفواههم شقّ متوحش تتدلى منه أسنان كأنياب الضباع، طويلة، صفراء، ومسنّنة.

كانوا يرتدون أثوابًا بدائية ممزقة من جلود داكنة لا تشبه جلود الحيوانات الحديثة، مزيّنة بأحزمة عظمية وأصداف منقرضة، تفوح منهم رائحة فاسدة تنذر بالعدوى والموت، مزيج من لحم نيّئ مُتحلل، وعفن كهوف قديمة لم تطأها قدم بشر منذ عصور ما قبل اللغة. بدت على أجسادهم وشوم بأشكال لولبية ونقوش هندسية ملتوية، تلمع كما لو كانت محفورة بمادة فسفورية.

لم يكن بين هذه الكتلة الذكورية العملاقة أنثى واحدة. وكلما حدّق باسكال في المشهد المربك، راح يسأل نفسه :

= أين نساؤهم ؟ هل لم يعد لهن وجود ؟ هل ماتت الأنثى في عالمهم القديم أم تُخفى في قاعات أعمق ؟

كانوا يتحدثون بصوتٍ أجشّ تداخلت فيه طبقات من اللغات، لغة بدت وكأنّها خُطّت على الحجر قبل اختراع الأبجدية، أصوات متقطعة، صرير معدني، وخوار بدائي، وكأنهم لا يتحدثون بل يُخرجون أصواتًا من جوفٍ عميق، عفنٍ ومهجور. صداها ارتطم بجدران الكهف فارتجّ الهواء كأن الجدران تتنفس معهم.

كانوا يضحكون — لا، ليس ضحكًا — بل قهقهة باردة، شريرة، تكشف عن أنياب حادة وألسنة بلون الفحم. أحدهم أمسك بحيوان غريب الشكل فمزقه بأسنانه أمام الآخرين الذين أخذوا يصفقون له، بصفقات يدوية كالصواعق.

اختبأ الفريق البشري بصمت تام، يتصبب منهم العرق رغم برودة الهواء، وعيونهم تلتهم المشهد بلا رمشة واحدة. لكن ما لم يتوقعوه حدث.

صوت طقطقة من الدليل المحلي —– غصن انكسر تحت قدمه —– لا أكثر، لكنه كان كافيًا لإيقاظ الغريزة المفترسة لدى أحد العمالقة.

توقّف فجأة، شمّ الهواء كذئب، ثم أدار رأسه، وصرخ بصوت مزق أحشاء الجبل:

= غارغراااااااااااااا !

جمد الدم في عروق الجميع.

تجمّع بقية العمالقة خلفه، وبدأوا يركضون، ليس جريًا، بل أشبه باجتياح أرضي، الأرض تهتز تحت أقدامهم، والحجارة تتفتت، والنباتات تتقافز يمينًا ويسارًا.

صرخ باسكال :

= اركضوا نحو البوابة ! أسرعوا !

اندفعوا جميعًا بين الأشجار، الأغصان تتطاير و الأعشاب الشائكة تلسعهم .. اللهاث تحول إلى صراخ، و جوليان يلتقط جهاز الملاحة محاولاً تتبع المسار في ضوء خافت. العمالقة اقتربوا، وصرخاتهم ملأت الوادي بصدى مرعب يمزق الأفئدة :

= هاغراغا! هوووووف! راراراااا !

كل صرخة منهم كانت كالقصف. أحدهم قفز فوق صخرة ضخمة وانقضّ بجسده كنيزك، كاد يفتك باثنين من المساعدين، لكنهما انزلقا نحو جرف موحل ونجيا بأعجوبة. تساقطت الصخور، ارتجّت الكهوف، وتحول الهروب إلى جحيم حيّ، كأن الجميع عالقون في كابوس نُسج من أساطير الغضب.

بعد سلسلة مراوغات واستعانة بآثارهم المطبوعة على الأرض ،

تمكنوا أخيرًا من العودة إلى البوابة ، انسلّوا منها واحدًا تلو الآخر، يلهثون، ينزفون، ولا يصدقون نجاتهم.

ثم، خلفهم، سُمعت صرخة أخيرة... لا غضب فيها هذه المرة، بل حزن .. كانت وحشية... لكنها تحمل شيئًا من الخيبة ..

وسط لهاثٍ متقطع وقلوب تخبط أضلاعها كطبول حرب، خرج باسكال وفريقه من الشقّ الصخري الضيق إلى سفحٍ مكشوف مكلّل بالثلج، كأن جوف الأرض تقيأهم الى هواء العالم من جديد. كانت الشمس تتهامس على الأفق القطبي كجفنة نار معلّقة، بينما الريح تعوي بوحشية كأنها تنذر بما هو أعظم. لم يتفوه أحد بكلمة، الأعين وحدها كانت تتحدث، تتسع كل لحظة كأنها ترى الموت خلفها يتشكل بهيئة غير بشرية ..

بعيدًا عن الشق الحجري، لم يكن هنالك متسع من الوقت للندم، ولا للتفكير بما رُئِي، بل فقط للهرب. كانت المروحية، تومض في الأفق كطوق نجاة سماوي. انطلقت الأصوات اللاسلكية المرتبكة :
= خطر داهم... تجهّزوا لإقلاع فوري...

وبين كل صرخة، كان الزمن يُنتزع من عروقهم.

في غضون دقائق قليلة، وصلوا إلى الحافة الثلجية حيث تجثم المروحية بهبوط غير مستقر. حوامة سوداء لامعة، ذات أذرع من الكربون وأجهزة ملاحة تتلألأ كالنجوم. دارت شفراتها بسرعة جهنمية كأنها تمزّق الهواء نفسه، بينما زمجرة المحرّك تتداخل مع زمجرة العمالقة البعيدة ..

ركض الفريق نحوها، زلاجاتهم تغوص في الثلج، ملابسهم ممزقة، والبرد ينهش أطرافهم. أول من صعد كان لارا، سحبت أحد المساعدين خلفها، ثم البقية و أخيراً باسكال وهو يصرخ :

= هيا ! أقلعوا حالاً !

لكن شيئًا آخر تحرّك هناك، خلفهم تمامًا، في فم الكهف الذي خرجوا منه... يد.

يد عملاقة.

سوداء، متشققة، بأظافر أطول من الخناجر، خرجت من بين الشقّ الجبلي كفحيح أفعى ملتهبة. قبضت اليد على أطراف الصدع، ثم... بدأت تفتحه.

كانت الصخور تصرخ، الثلوج تهوي من المنحدرات، بينما بدا العملاق الغاضب وكأنه نُفخ فيه من نار القيامة. بكامل عنفه، شدّ الصدعين المتباعدين، فبدأت الفتحة تتوسّع، شبرًا بعد شبر، ثم ذراعًا... ثم مترًا... حتى صار الجبل ينوح بصوت مجروح.

في المروحية، نظر باسكال من النافذة الخلفية، وعيناه تسجلان لحظة أخيرة لن تُنسى : العملاق يشق السدّ كما يُشقّ رغيف الخبز، ووراءه عشرات العيون الحمراء تلمع من باطن الظلام. الحجارة تتساقط كقذائف، والغبار يملأ الفضاء الأبيض، وكأن يومًا من أيام الله يوشك أن يبدأ.

= انطلقوا ! لأعلى ارتفاع !

صرخ باسكال للطيار.

ارتفعت المروحية، واهتزّ بدنها بفعل رياح التفجير الناتج عن انهيار أولي في جسد السد .. ومن الأسفل، ارتفعت صرخة عملاقة، لا تشبه الغضب... بل كانت نُذُرًا. وكأنها تقول للعالم :

(لقد عدنا.)

وفي اللحظة التي تجاوزت فيها المروحية حدود الجبال، سُمع دويّ مرعب، انهيار السد. كومة الصخور التي صمدت منذ آلاف السنين انهارت كقلعة من رمل، والضوء المتسرّب من الكهف بات نهرًا من الجحيم.

تحرر العمالقة، ونظرات الطاقم مصوبة عليهم حتى الغياب... التفت المروحية و غادرت المنطقة وهي تحمل في أحشائها شهادة البداية لنهاية كل شيء.

صدقت النبوءة إذن و خرج قوم يأجوج و مأجوج من خلف السد الذي احتجزهم لآلاف السنين حتى جاء باسكال على قدرٍ و هدّه ..

*****

الاجتياح البربري ..

في تلك الليلة و عقب انهيار سد ذي القرنين، بدا كل شيء هادئًا كأن الأرض تتنفس في سبات عميق. فوق سهول قرغيزستان المزروعة بالحنطة البرية، كانت الرياح تمر بخفّة العرافات، تدغدغ وجوه المزارعين وتهمس لهم بما لن يفهموه إلا بعد فوات الأوان. المدينة العاصمة بيشكيك، بجبالها المتوشحة بالثلج وساحاتها المزينة بأعلام الأمل، لم تكن تعلم أن قدَرًا عتيقًا يتحرّك من خلف الستار، يسير من باطن الأرض كموعدٍ مؤجل منذ آلاف السنين.

من تخوم **جبال تيان شان**، وعلى حين غفلة من كل الأقمار الصناعية والأنظمة الدفاعية، خرجوا. ليسوا حيوانات ولا بشرًا، بل خلقٌ غريب، عملاق، عارٍ من الرحمة، يترنح بين الأسطورة

واليقين. أربع وأربعون كينونة عملاقة، كل واحد منهم بطول شجرة أرز معمّرة، تسير بخطى تزلزل الأرض وتفتّت الصخر. أجسادهم تنضح بالبخار، كأنهم خرجوا تواً من جوف بركان. عيونهم موصولة بلون الرماد، لا تُبصر، بل تشعر بنبض الخوف في قلب من يراهم.

وفي غضون ساعات، انهارت أولى القرى مثل أعواد ثقاب. لا صراخٌ نجا، ولا باب أُغلق في وجههم إلا حُطّم. كانت قرية **توكموك** أولى الضحايا، ثم تبعتها **كانت و بيلوفودسك و شوبوكوفو** .. الطرقات امتلأت بدماء المدنيين، والهواء امتلأ بزئير العمالقة وهم يرفعون أعمدة الإنارة لينهالوا بها على المباني كما يُضرب الطبل في جنازات الجبابرة.

لم تكن الأخبار في البداية أكثر من شائعات محمومة على وسائل التواصل. مقاطع فيديو مشوشة لظلال ضخمة تجرُّ المدن كما يُجرُّ الرمل من الشاطئ. صوت بكاء طفل يتردد في الخلفية، وآخر هرم يُقسم بأن القيامة بدأت.

في الأروقة الباردة **للكرملين**، وحول الطاولة الدائرية في **بكين**، بدأ القلق يتحول إلى هلع استراتيجي. لم تكن هناك أوامر، بل صمتٌ يسبق العاصفة. ثم، في لحظة توافق معتادة، اجتمع جنرالات الصين وروسيا في اتصال مباشر، واتفقوا على إطلاق العنان: طائرات حربية، صواريخ ، دبابات، فرق برية مدرّعة، وحدات خاصة تحمل آخر ما وصل إليه العلم من سلاح، ستتجه إلى قلب قرغيزستان بطلب من حكومتها لتقابل الجنون القادم من أعماق الجبال.

وفي غضون أقل من ست ساعات، كانت سماء العاصمة تموج بأسراب من المقاتلات النفاثة. من بعيد، كان سكان بيشكيك يرون

الخطوط البيضاء التي تتركها الطائرات خلفها، وكأنها حواجب مكتوبة بخوف على جبين السماء.

لكن العمالقة لم ينتظروا أن يُحاصَروا. اندفعوا نحو العاصمة، كأنهم يعرفون أنها النخاع الشوكي لهذا الجسد الصغير المسمى بالدولة. وبينما تُنذر الأبواق بانفجار المعركة، كان العمالقة قد وصلوا تخوم المدينة، وبدأت الصخور تتطاير كألعاب الأطفال، والمباني تنهار كأنها بيوت كرتونية من مشهد سينمائي عبثي.

بدأت المعركة حين ارتجّت الأرض تحت أقدام الجيش الروسي المتقدم من الشمال، والجيش الصيني الزاحف من الشرق. لم يكن القتال كما رسمته كتب الحروب التقليدية، بل كان أقرب إلى اصطدام حضارتين لا تنتميان للعصر ذاته.

انطلقت الصواريخ كأنها شياطين محمولة على أجنحة اللهب، ضربت أولى العمالقة فتناثر لحمهم كقطع الفحم المحترق. لكن سرعان ما عادوا ينهضون. لم يردعهم اللهب، بل زادهم توحشًا. أحدهم تلقى قذيفة مباشرة على صدره، فهوت عليه شجرة عظيمة كأنها تبكي، لكنه لم يتوقف، بل رفع جذع الشجرة وضرب بها طائرة حتى تفتت كالقشرة.

السماء اشتعلت. المروحيات تطير وتهبط وتطلق صرخاتها النارية، العمالقة ينقضون على الدبابات بقبضاتهم، يسحبونها من الأرض كما يُسحب العصفور من غصنه. الجنود، رغم بطولتهم، كانوا أقزامًا أمام جحيم هؤلاء. الرصاص يرتطم بأجسادهم بلا جدوى، والقنابل تنفجر على جلودهم كأنها قطرات مطر.. و الأخطر كان استخدام العمالقة للبشر كدروع تحميهم ، فحيدت الصواريخ خارج الخدمة ..

غير أن الاتحاد يولد المعجزات. تكتيك محكم، تنسيق غير مسبوق، استغلالٌ لكل فجوة، لكل بطء، لكل لحظة عبور. **بدأت نقطة**

الضعف تظهر: خلف العنق، حيث يبدو الجلد رماديًا أرقّ من سواه. وجهت الرصاصات القاتلة إليها. سقط أول عملاق، ثم آخر، ثم ثالث.. و بدأت الجثث تتكوم فوق بعضها كهرم من قطع عملاقة ..

و في لحظة فارقة، انهار العملاق الأخير على أرض قرغيزستان، وارتجّت الأرض كما لو أن قلبها كُسِر أخيرًا ثم هدأ كل شيء ..

سقط الصمت على المكان كآخر عملاق في أرض المعركة، لم يكن صمت راحة، بل صمت موت. بيشكيك لم تعد كما كانت، نصفها أطلال، ونصفها الآخر يبكي. في الشوارع، كان الجنود يرفعون بقايا رفاقهم، والمواطنون يدفنون أحبتهم في قبور جماعية بلا أسماء.

العالم بأسره وقف مشدوهاً أمام الشاشات. ما الذي حدث ؟ من أين خرجوا ؟ ولماذا الآن ؟ فُتحت الكتب القديمة، نُبشت نبوءات قديمة عن يأجوج ومأجوج، عن قوم لا يُرَدّ بأسهم، عن نهاية تختبئ في جلد الأسطورة.

وفي جبال قرغيزستان، حيث سقط العمالقة الأربعة والأربعون، نُصبت قبور من الحديد فوق رفاتهم على خطى سد ذي القرنين، لكنها هذه المرة سجون أبدية لجثث لم يكن يُفترض أن تولد من جديد ..

البعض قال، وهم يهمسون في الليل :

(لقد ماتوا... لكن هل كانوا وحدهم ؟ و هل هم آخر فصل في مسرحية الساعة و علاماتها ؟)

لم تُكتب نهاية القصّة بعد، بل وُضِعَت فاصلة على طريق قد تُستكمل ذات قريب.

يسوع و المهدي

فلسطين / أيام الميلاد المجيدة

بعد عام .. أوائل عام 2472 م ..

في تلك الأيام التي احتشدت فيها علامات الساعة على شفير الانكشاف، حين ضاق الصدر البشري بأنفاسه من توالي النُذر وتكاثر الإشارات، ظهر في فلسطين على جبل الزيتون وجهٌ لا تخطئه البصائر و لا تخونه النبوءات . كان **يسوع المسيح**، محياه أهدأ و أكثر خشوعاً مما رسمته الجداريات في الكنائس، أو كما تخيلته المواعظ، بل كما تجلّت الآن : رجل في الثلاثينات من عمره، بملامح يشوبها نور السكينة وحرقة العارف. شعره أشقر داكن يتماوج تحت شمس الناصرة كسنبل القمح الناضج، وعيناه تومضان بلون البحر تحت سماء ملبدة ، كزمرد لا ينتمي لأي خضرة عرفها البشر، كأنهما منبع النماء ذاته.

مرّ أول ما مرّ في **سوق خان الزيت بالقدس**، فاقترب من بائع يغش الميزان خلسة، يملأ الكف أمام الناس ويُفرغ النية من الصدق. وضع يسوع يده برفق على الميزان فانقلب الصمت صوتًا :

= ويل لك، أتظن أن الرب يقبل قرابينك وميزانك مثقوب ؟ إن ما تُنقصه من الناس، تنقص به من روحك.

تجمدت حركة البائع، وارتجفت يداه، أما الناس فقد التفتوا وسمعوا ما قال، ولم يجرؤ أحدهم أن يسأل : من هذا ؟ لأنهم شعروا أنهم يعرفونه منذ بدء الخليقة.

وفي **رام الله**، مرّ على مصرفٍ مشهور بجشعه، حيث يجلس داخله مرابي عجوز تحوطه الأوراق والفوائد والديون. دخل

يسوع وحده،

جلس على طرف الطاولة وقال بصوت أقرب للريح :

= كيف نَمَت لك هذه الجيوب من عظام الضعفاء ؟ أتُقرض بأضعاف، وتنام على سرير من دموع الأرامل ؟ أما سمعت القول: من يُقرض الفقير يُقرض الرب، والرب لا يأخذ الربا ؟

فبكى العجوز دون أن يفهم السبب، و انفض الناس من حوله خجلين، كأنهم اغتسلوا للتو من ذنوب لم يدركوها.

وفي **نابلس**، كان طفل صغير اسمه رامي يرقد على كرسيّ متحرك منذ ولادته، يعاني من مرض نادر يُدعى **ويردينغ هوفمان**، حكم عليه بالشلل الرابعي .. بأن لا يركض ولا يقف ولا يحضن أمه. اقترب منه يسوع، ركع إلى مستواه، ومرّر كفه على قدميه دون أن ينطق بكلمة. صمت الناس، توقفت الطيور، وانزلق شعاع من السماء كأن الشمس همست بشيء لم نسمعه. ثم فجأة، وقف رامي. لا فقط وقف، بل ركض وضحك، وعانق أمّه كأنّه خرج من ضريح.

أما في ضواحي **أريحا**، فقد وقع حادث سير مرعب. سيارة انقلبت مرات عدة، وخرج منها رجل جسده مسجّى و قد فارقته الروح، فاقد النبض و الارتعاش و لمعة العينين. وكان يسوع مارًا من هناك، فاقترب وسط الجموع، ووضع كفّه على جبهة الرجل وقال :

= إنك لم تُكمل رسالتك بعد. قم.

فتح الرجل عينيه، ثم نهض كما لو أنه استيقظ من قيلولة، ولم يعرف لماذا يركض الناس نحوه ويصرخون، ولِمَ تبكي ابنته التي خالت لوهلة أنها فقدته للأبد ...

وفي ساعات الصباح الباكر، رآه صيادو السمك في **بحيرة طبريا**،

يمشي على سطح المياه كما يمشي الإنسان على تراب. كان الندى يلتف حول قدميه، والماء يخضع لإرادته، والنوارس تحلق فوقه كحرّاس نورانيين. هلوس البعض، وجثا البعض، وآمن الجميع بأشياء سمعوا عنها من قبل لكنهم لم يشهدوها .. و اليوم هم شهود عيان على معجزات يسجد لها المنطق و يصحو على وقعها الضمير من سباته

انتشرت مشاهد ظهوره كالنار في الهشيم، في **بيت لحم والخليل ويافا وعكا وصفد واللد.** لم يكن يتحدث كثيرًا، بل كانت أفعاله تصرخ في أرواح الناس من مختلف مللهم و أعراقهم ..

وفي تعاليمهم القديمة، تنبأت الكتب جميعها بعودته في آخر الزمان حتى صدقت النبوءات :

في **الإنجيل، في سفر الرؤيا (19I11)** جاء :

(ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض، والجالس عليه يُدعى أمينًا وصادقًا، وبالعدل يحكم ويحارب.)

وفي **التوراة، في سفر زكريا (14I4)** جاء:

(وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي يواجه أورشليم من الشرق.)

و في **الاسلام** قال نبي الرحمة في حديث رواه البخاري :

(كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟)

لقد جاء. لا لأجل دين، بل لأجل الإنسان. لا ليحكم، بل ليُذكّر. لقد عاد في لحظة كان فيها العالم أحوج ما يكون، ليس إلى معجزة، بل إلى الحقيقة بعد أن غرق إلى حضيض الخطايا ..

هاجت الدنيا و ماجت .. ظهور يسوع ليس كغيره من علامات

الساعة حمالة الأوجه .. التي يمكن للبعض ردها للمصادفات و التشكيك .. بل علامة دامغة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ..

الساعة آتية ..

القيامة قاب قوسين أو أدنى ..

فهل يستفيق البشر ؟

*****

المغرب / أيام رمضان المباركة

2472 م ..

هناك في أقصى الغرب ، في ليالي **مراكش** الحالمة، حيث تتوارى الشمس خلف جبال الأطلس العتيقة، وتذوب في الغروب ألوانها بين ظلال الأزقة الضيقة، انبعث نور خافت ليس كأي نور، لا يأتي من قناديل الشوارع أو وهج الشموع، بل من رجل يمشي بهدوء وثقة كأنه يحمل في عينيه نجمين من زمرد صافٍ. كان هذا هو **محمد المهدي المنتظر**، الذي حلم به الصالحون وكتب عنه العلماء في كتبهم، ذلك الرجل الذي بدا في خريف العمر، لكن بوجه يفيض صفاءً وحكمة نادرة، وشعره الداكن يتلألأ بلون خرنوبي حي، كأنه يحمل في جوهره سحر الأرض والنور السماوي.

حطّت قدماه على طرقات المدينة العتيقة، يمر بين الأسواق والمساجد كريحٍ تهبّ بنعومة، يلتفت إليه الصغار والكبار بعيون ملؤها الدهشة، وفي كل جامع يُقبل عليه، يرفع صوته بخشوعٍ عميقٍ يُؤمّ الناس في ركعات الصلاة، يبعث فيهم نسمة الأمل والنقاء التي غابت عنهم طويلاً في صخب الحياة و ترف التكنولوجيا و أهوال الزمان.

لم يكن المهدي إماماً عادياً، بل كان حامل رسالة الرجوع إلى النور، يحث الناس على التوبة والرجوع إلى الله، ويحذرهم من مصير مجهول ينتظر الذين يُصرّون على الظلم والفساد.

في أروقة المساجد وبين جدرانها الحجرية، جلس ينير قلوب الحاضرين بتفسيره العميق للآيات القرآنية التي اختلف الناس في تأويلها، فتراه يُنقّب عن حكمة قديمة تربط بين نصوص السماوات وبين أحداث الأرض المتقلبة. كان صوته ينبعث كنسيم رقيق يزيل الغبار عن صفحات الحكمة، يجعل من الجهل نوراً، ومن الظلمة بريقاً.

وقف مرة في ساحة مكتظة بالمصلين، ونظر إليهم بعينين تنبضان بالرحمة والحزم معاً ثم قال :

= أنا ظهرت كعلامة من علامات الساعة. عليكم بالتوبة، فالنجاة في العودة إلى الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ لأطال الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً.)** و ها أنا ذا، أفتح لكم باب الرجاء والعدل.

كانت كلماته توثقها الصحف وتقفز إلى منصات الأخبار و تجتاح صفحات مواقع التواصل الاجتماعي كتسونامي يفيض بالنور و الخشوع ، حتى صار الحديث عنه يملأ المجالس، بين مؤمن متلهف، ومشكك يطرح الأسئلة.

حاول بعض الذين لا يؤمنون أن يؤذوه، لكنهم أصيبوا بغشيان غامض كأن حوله قوة روحية تحميه وتردع كل من يسعى إليه بسوء. وذاع صيته في مراكش وخارجها، ليكون علامة جديدة من علامات الساعة، كما بشّر نبي الرحمة.

تحدث القرآن الكريم عن زمان من هذا النوع :

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم.)

(الأنبياء: 1)،

وكأن هذا الوقت جاء فيه رجالات النور ليقودوا المعركة ضد حلكة الظلام.

كان المهدي يمشي بين الناس بخطوات ثابتة، يوقظ النفوس النائمة ويزرع فيها بذور الهداية ، التوبة و الإيمان. كانوا يرفعون رؤوسهم إليه، يتأملون صوته الذي ينساب كالماء العذب، ويتنفسون الأمان في حضرته. بين كلماته النابعة من القلب و الضمير مباشرة ، بدون إجبار الناس و لا تعنيفهم ..

عبّر عن قلقه على البشرية قائلا :

= لقد حان وقت الحساب. لا مجال للراحة أمام الظلم والطغيان، فلا تتركوا قلوبكم تنجرف بعيداً عن طريق الحق، فالنهاية باتت قريبة بحكم الله الذي لا مرد لقضائه ..

تجمعت حوله جموع لا تحصى من مختلف الطوائف، وجدت فيه الصورة الحية للنبوءة التي تقول :

(المهدي مني .. أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً ..)

وكان اسمه يُردد بين الشفاه، و تُخاطب به القلوب التي تلهث وراء الرجاء.

لكن المهدي لم يكن رجل سلام فقط، بل نذير صارم، يحذر من

عواقب التجاهل والتمادي في الظلم. فأكد مراراً و تكراراً :

= احذروا أن تحملوا وزر الظلم، فإن عذاب الله قريب، لا تتأخروا بالتوبة والإنابة، فقد أوشكت ساعة الحق والحساب على الرنين.

تنقل بين **نواكشوط و عنابة و صفاقس و سرت** ، و تحول شمال إفريقيا مع مرور الأيام إلى مسرح يتنفس الأمل والرعب في آن واحد. كانت أصوات المشككين ترتفع، والمؤمنين يزدادون حماسة، وكانت أنظار العالم تتجه صوب هذا الرجل، الذي يحمل بين يديه مفاتيح نهاية الدنيا وبداية اللانهاية .. أشبه بالشمس الدافئة المنتظرة التي تشق عتمة ليل طال دجاه، تنير دروب الضائعين، وتعيد للحياة بهجتها التي خارت. يحمل في كلماته رسالة الرحمة والعدل، ويعد بلحظة تنبعث فيها الأرض من جديد، تتنفس عدلاً وسلاماً قبل أن تأخذها قبضة منقم جبار ..

وبهذا الظهور العجيب، كانت الدنيا تشهد ميلاد فجر جديد، فجر لا تملؤه سوى أنوار التوبة و الرجاء، في زمن تكاد أن تنقشع فيه غيوم النهاية عن سماء الحقيقة الكبرى التي طالما شكك بها البشر أو تجاهلوها أو سخروا منها .. لكن الحقيقة اليوم كالشمس الساطعة لا يمكن تغييبها خلف سبابة و لا إنكارها بقوانين علمية .. و لا تجاهلها بإغماض العينين ..

و جمع الشمس و القمر
في قلب الدخان

اندونيسيا / جزيرة جاوا

أواسط عام 2472 م ..

في ذاكرة الزمان، ثمة سنة لم تسقط من السجل، بل طُبعت على جبينه كما يدبغ الوسم على جلد الحيوان، لا تنمحي ولا تُنسى. سنةٌ اختبأت خلف ستائر العصور، ترتجف كأنها لا تزال تسمع صراخ جوعى لم يُطعمهم غير الرماد، وأنين أرضٍ اختنقت خلف دخان السماء.

إنها سنة **536** للميلاد، تلك التي لم تكن مجرد تقويم معلّق على جدار الزمن، بل حائط مبكى للبشرية جمعاء.

في تلك السنة، تنكّرت الشمس للبشر، وانسحب النهار في ثياب الحداد. جُرّدت الأرض من نورها، وسقطت الأعوام من أعين الفلاحين حين نظروا إلى حقولهم فلم يروا سوى سوادٍ ناعم يكسو التربة ككفن، لا ينبت زرعًا ولا يُبقي حياة.

السماءُ ذاتها بدت كأنها شاخت فجأة. لم يعد في الصباح إشراق، ولا في الغروب حنين، بل غشاء كثيف من رمادٍ متراكم، يسدّ شرايين الضوء، فيحيل العالم إلى كيان رماديّ، موحش، نصف حيّ، نصف ميّت.

وكان العالم، كلّه، كلو دخل نفقًا لا نهاية له.

الشتاء الذي حلّ، لم يكن شتاءً، بل زفير بركانٍ مجهول الهُوية، يُقال إنه انفجر في أعماق **إيسلندا**، أو في فجوة ما من أعماق الغضب الجيولوجي. لكن ما خرج منه لم يكن حممًا فقط، بل

ظلالًا، سحبًا من سوادٍ كثيفٍ تسرّبت إلى طبقات الجو العليا، وانتشرت كطوفان صامت، طوفان لا يغرق الأجساد، بل يبتلع النور.

وبذلك الغبار، تبدّدت الفصول. لم يعد هناك صيف ولا ربيع، بل شتاءٌ بركاني أبديٌّ بارد، قاتم، يحتضن الكوكب كله بأطرافه الجليدية. هبطت درجات الحرارة في أوروبا وآسيا هبوطًا حادًا، وكأن الأرض تنفّست من رئة مريضة، لا هواء فيها سوى الهلاك.

ذبُلت المحاصيل كما تذبل الأرواح إذا نُزِع منها الأمل. الجياع لم يجدوا ما يقتسمونه سوى الصمت والموت. والحيوانات هامت على وجوهها، لا كلأ ولا ماء، حتى الطيور بدت كأنها تنوح لا تغرّد.

أما المدن، فقد تحولت إلى مسارح للحزن، ومقابر جماعية لمن فقدوا الحياة وهم يبحثون عنها.

ولكنّ المصيبة لم تنتهِ بانتهاء الظلام، إذ جاء **الطاعون**، ذلك العاشق الأعمى للمآسي، يزفّ موته الأسود إلى جثث لم تبرد بعد.

جاء الوباء كأنما هو ظلّ المجاعة، وجهها الثاني، جاء كالعاصفة على بحرٍ من الجثث. كان الناس يتساقطون في الطرقات، لا يشبهون الموتى بقدر ما يشبهون ورق الشجر في خريفٍ عاصف، يرقصون لحظة، ثم يهوون إلى اللاشيء.

قُدّرت الضحايا بالملايين، لكن الأرقام لم تكن سوى محاولة لتكميم فم الفاجعة. كان الشعور العام أشبه بيوم قيامةٍ مصغّر، تدرّب فيه العالم على نهاية أخيرة أكبر. وكانت الأرض تدفن أبناءها دون أن تبكي، ربما لأنها بكت بما فيه الكفاية، أو لأنها لم تعد قادرة على

الحزن.

في نظر المؤرخين، وتحديدًا المؤرخ **مايكل ماكورميك**، لم تمرّ سنةٌ على البشرية أشدُّ ظلمةً ولا أقسى وقعًا من تلك السنة الكبيسة. لقد رشّحها لتكون أسوأ سنة في تاريخ البشرية، ولم يجد في الألفيات ما يوازيها فجيعة، لا في الحروب، ولا في المجاعات، ولا حتى في الطوفانات.

لكن، ما لم يعرفه الناس يومها، ولا الذين جاؤوا بعدهم بقرون، أن تلك السنة لم تكن إلا بروفة أولى، مشهدًا تجريبيًا صغيرًا، لحكاية أعظم لم يُكتب فصلها الأخير بعد.

كانت تذكيرًا خفيًا، تنفّسته الأرض من جوفها، بأن يومًا ما، سينهار الساتر الأخير بين الدنيا والآخرة.

ربما لم تكن سنة **536** النهاية، لكنها بلا أدنى شك كانت إشعارًا بها.

كانت تمهيدًا ليومٍ لا شمس فيه، ولا قمر، حين تُختبر النفوس في الظلام، وتُفصل الأقدار.

لقد أيقظت تلك السنة الأميرة النائمة ـ الساعة ـ من سباتها، وذكّرتها بأن الحياة لا تسير للأبد نحو الربيع .. بل أحيانًا، تأخذ منعطفًا قاتلًا، يعلّم البشر أن القيامة قد لا تبدأ بصيحة، بل بهسيس رماد، يُطفئ العالم بهدوء و بطء ، كما يُطفأ قنديل في معبد مهجور.

*****

الأرض المريضة تفرغ صديدها ..

في عمق أرخبيل **إندونيسيا**، بين جزيرتي **جاوة و سومطرة** ، يقع **بركان كاراكاتو** كندبة جغرافية مفتوحة على خريطة المحيط الهندي، وكأنه فم الأرض الذي ينتظر اللحظة المناسبة ليصرخ و يتقيأ ما في أحشائه إلى سطح الأرض و صدر السماء. يتبع هذا البركان حزام النار في المحيط الهادئ، أحد أكثر المناطق زلزالية وبركانية في العالم، حيث تتلاقى الصفائح القارية كأنها تتصارع على حدود الفناء.

تاريخه يشبه كتابًا ممزق الصفحات من شدّة ما شهده من فوران. فقد عرف البشر هذا الوحش الصامت منذ قرون، لكن العالم كله انحنى أمام اسمه سنة **1883**، حين دوّى انفجاره الهائل فسمعوه من أستراليا إلى أفريقيا، من الهند إلى جزر مدغشقر، وغطّى صداه نصف الكرة الأرضية. وقتها، لم يكن مجرد انفجار، بل كان أشبه بيوم قيامة مصغّر آخر .

لكن ما حدث بعد سبعة قرون ، عام **2472**، كان شيئًا آخر.. أكثر رعباً .. أكثر فتكاً .. و أكثر تماهياً مع علامات أخذت تتجلى تباعاً منذ عامين و تصرخ في وجه البشرية بأن الساعة قد اقتربت.. عاد كاراكاتو ليصهل، لا ليومٍ ولا لأسبوع، بل ليستمر ثلاثة أشهر متوالية، وكأن الأرض تسكب في السماء كل غضبها التاريخي دفعةً واحدة.

بدأت الأرض في بداية الصيف ترتجف بهدوءٍ خبيث. زلازل صغيرة في قاع البحر، ثم براكين من البخار تتصاعد من سطح الماء كأن المحيط نفسه يتصبب عرقًا من هول ما يتخمر في أعماقه. وفي ليلة لا تُنسى، انشق البحر في منطقة كاراكاتو، فارتفعت أعمدة اللهب كأشجار جهنمية تنبثق من فم الأرض. انفجر

البركان كما لو أنه استُفز من صمت العالم.

ارتجت الجزر المجاورة، واهتزت الأمواج، ثم تسلّلت وحوش المحيط إلى اليابسة في هيئة تسونامي مدمّر. في دقائق، غمرت المياه سواحل جاوة الغربية وسومطرة، وغرقت قرى بأكملها، اختفت البيوت، والحقول، وحتى المقابر. قُتل عشرات الآلاف، لا على يد النار وحدها، بل على يد الماء الذي حمل الحمم والموت في حضنه.

كان الانفجار أقوى بأضعاف من قنبلتي هيروشيما وناغازاكي مجتمعتين. شُوهدت الصواعق وهي تضرب من الغيم الناري إلى سطح البحر، كانت الأرض تئن من وجعٍ لا يطاق، وكان المحيط يتلوى كأفعى رُميت بالحمم. لعشرة أسابيعٍ تواصل القصف الناري من فوهة كاراكاتو، حتى بدا وكأن قلب الأرض نفسه احترق.

لم يقتصر أثر البركان على من جاوره. كان كاراكاتو كانفجار عملاق في قلب كوكب هش. تصاعد الرماد البركاني آلاف الأمتار في السماء، واختلط بالجزيئات العليا من الغلاف الجوي، فحجب أشعة الشمس عن أغلب مساحة الأرض. عتمة رمادية اجتاحت البلدان البعيدة، من **الهند إلى الصين، من جنوب أفريقيا إلى أوروبا الشرقية.. من جزيرة القيامة الى أوقيانوسيا ..**

في المدن الأوروبية، انخفضت درجات الحرارة بشكل غير مسبوق. الأشجار لم تزهر، والثمار ماتت قبل أن تولد ، وهبطت الأمطار الملوثة برائحة الكبريت، وكأن السماء تمطر من جوف جهنم. لم يرَ الناس الشمس لأسابيع و أشهر ، بل رأوا قرصًا باهتًا، مريض اللون، كأن الكون نفسه أصيب بحمى.

في بعض الدول، سُجّلت حالات ذعر جماعي، حيث ظن الناس أن العالم قد انتهى فعلًا. في الصحف، انتشرت عناوين تتساءل:

هل حلّت الساعة ؟ هل هذا هو الدخان الذي وُعدنا به ؟.

وكان العلماء يراقبون ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكبريت في الستراتوسفير، ويتحدثون عن شتاء بركاني قد يطول أثره لعقود.

وسط هذا المشهد الهائل، تذكّر المؤمنون ما ورد في القرآن الكريم في سورة الدخان :

(فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين، يغشى الناس، هذا عذاب أليم.)

كان السحاب الرمادي يبتلع السماء في نهارات كاملة، والناس يتنفسون غبارًا لا يُرى. كان الدخان يغشى الصدور والعقول، ليس لأنه خانق فقط، بل لأنه يحمل خوفًا غامضًا، إحساسًا داخليًا بأن شيئًا أكبر من كارثة طبيعية يحدث.

في المساجد والكنائس والمعابد، ارتفعت الأدعية. كتب الشيوخ على منابرهم أن هذا الرماد هو من أشراط الساعة، وأن الدخان المبين قد لا يكون رمزًا مجازيًا بل مادة محسوسة تُظلم بها الشمس ، و تنهار بها القلوب.

ثلاثة أشهر، كأنها ثلاث حقب من الغضب السماوي. لم تكن مجرد كارثة طبيعية، بل كانت مرآة مكبّرة لعجز الإنسان أمام اتساع قوى الخلق.

و كأن الأرض استدارت فجأة، لا على محورها، بل على قدرها. ففي صباحٍ لم يشبه أي صباح، نهض أهل الشرق على ظلمةٍ لم تزل، وعلى سماء مشروخة كأنها ضيعت جهة الشروق. وحدها

الريح كانت تهب، محمّلة برماد ناعم يتسلل إلى الحناجر، ويذرّ الملح و الكبريت في العيون.

ذلك الرماد، الذي انبعث من جوف كارثة جيولوجية لا اسم لها، لا قيد لها، ولا ذاكرة تستطيع احتواء حجمها، تسلّل كضبابٍ عتيق من فوهات البراكين ، ثم تمدد ككفنٍ رمادي فوق قارات آسيا وأوقيانوسيا و شرق أوروبا و افريقيا، وطوّق شرق الأرض بوشاح كثيف كأن القيامة قد بدأت من جهة واحدة.

وها هي الشمس، تلك العجوز التي حفظت عادتها منذ ملايين السنين، تتلعثم في الشروق، تتوارى خلف الغبار، ثم... تتسلل من الغرب ..

لم يكن حدثًا فلكيًا ولا خللًا بصريًا، بل انقلاباً في دورة العالم. لم تعد الشمس تُبشّر بالنهار، بل تنذر بالختام. حين شُوهِد أول قرصٍ لها يطل من جهة الأطلسي، ارتجف الناس، وسقط البعض على ركبهم وهم يرددون :

(**قال نبي الرحمة** : **لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها**...)

فهل هذا هو اليوم الموعود ؟

هل هو الشروق الذي يسطع من الغرب ؟

السماء لم تكن زرقاء، بل طبقة من رمادٍ متلبّد، تحوّلت إلى مرآة داكنة تعكس الخوف لا الضوء. وكان الضوء نفسه مريضًا، مائلاً إلى الأحمر، كأن الشمس تستعرّ وهي تبكي من جهة لم تألفها، بينما الطيور تسير في دوائر ولا تهتدي.

*****

و جمع الشمس و القمر ..

في ليلٍ من رماد أعوج لا يستقيم، حدث ما شطر القلوب نصفين.

في جهة الغرب، حيث أذن للقمر أن يبدأ حكايته فقط ، ارتفعت كتلة من نور باهت، كأنّها طيف لا جرم سماوي. قمرٌ شاحب، أعرج، دامٍ، اكتمل ليخسف لا ليكتمل.

اجتمع الشمس و القمر و الأرض على خط واحد ، و في تمام الخسوف، حين غابت الأنوار وهبّت نسائم الموت، انتبه أحدهم —— ربما شيخٌ في نواحي الشام أو متصوف في أطراف الحجاز —— ففتح مصحفه، يبحث عن نبأٍ آخر يشبه هذا. وها هي الصفحة تفتح من تلقائها على قول الله تعالى :

(فإذا برق البصر، وخسف القمر، وجمع الشمس والقمر،

يقول الإنسان يومئذ: أين المفر ؟)

(سورة القيامة)

قرأها بصوت مرتعش، كأن الآية كانت تنتظره منذ ثمانية عشر قرنًا، وكأنها الآن فقط، الآن فقط، تنبض بالمعنى الكامل.

لم يعد الخسوف مجرد ظاهرة فلكية ، بل مفتاح يُفتح به باب الساعة.

ولم يعد القمر زينة الليل، بل شاهد قبرٍ يضيء فوق الأرض.

أما الجمع بين الشمس والقمر، فقد تحقق لا في سماء واحدة، بل في جنون واحد : خسوف مطول للقمر رآه البشر في غرب العالم فقط لأن شرقه محبوس بطيات الرماد البركاني ..

وانكمش الوعي البشري أمام هول ما يرى. ارتفعت صرخات الملحدين، وانطلقت نداءات التكبير من المآذن و رنين أجراس الكنائس، من الجبال والصحارى، من الصامتين الذين لم يجدوا غير الله ملجأً ، و من كان لا أدري ، بات يدري كل شيء ..

الناس لم يصرخوا فقط، بل فقدوا لغة الصراخ.

ولم تمضِ ساعات على تلك الليلة المنذورة للدهشة، حتى بدأ جلد الأرض يرتجف.

زلزلة، لا وصف لها سوى أنها أشبه بصيحة تُشق من باطن الوجود، نداءٌ داخلي ينبعث من لبّ الكوكب، كأن الأرض ضاقت بما عليها، وكأنها قررت أن تتفلّت من جلدها.

موجاتٌ زلزالية انطلقت من الأعماق، لا يقيسها ريختر ولا يصفها عقل.

أصوات عظام تصطك، مدن تهوي دفعة واحدة كقطع دومينو سقطت في لحظة غضب كوني.

في **طوكيو**، انهارت الأبراج كما ينهار الكبرياء.

في **إسطنبول**، تكسرت القباب فوق رؤوس السياح.

في **نيويورك**، تشققت الأرض وابتلعت مسارح المال والصور.

في **روما**، تهاوت الأعمدة الرومانية القديمة، وكأن الحضارات تسقط في مأتمها الأخير، و التاريخ يكفن في تابوت الحاضر ..

وفي **مكة**، اهتز الحرم، ولم يسقط، لكنه ارتجف كما يرتجف قلب الصادق عند اللقاء العظيم.

الأرض لم تعد حاملةً للعيش، بل مسرحًا لعدالة مهولة، تحاسب بدون أن تنطق.

وكل زلزلة كانت تردد صدى واحدًا، كأن في باطنها لسانًا يقرأ:

(إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان ما لها ؟)

لم يكن لسؤال الإنسان هذا سوى جواب واحد: **اقترب الوعد**.

و بهذه الخسوفات الأرضية في الشرق و الغرب اكتملت أشراط الساعة كلها كما وردت في حديث **حذيفة بن أسيد الغفاري** على لسان نبي الرحمة :

- انحسار نهر الفرات عن جبل من الذهب
- الأعور الدجال
- نزول عيسى بن مريم و ظهور المهدي
- خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد
- ظهور دابة تكلم الناس
- شروق الشمس من مغربها
- الدخان العظيم
- خسف أرضي بالمشرق و خسف بالمغرب
- نار عظيمة تخرج من اليمن

و بالتزامن مع اكتمال لآلئ طوق القيامة التي تزين الساعة جيدها به ، كان نيزك القيامة قد اقترب كثيراً من كوكب الأرض .. و مسافة الأمان التي طمأن بها الفلكيون البشرية لم تعد تملك من الأمان سوى خيط دخان يطوق القلوب ..

أجهزت علامات الساعة على نصف سكان الأرض بين قتيل و

مجنون و منتحر .. أما النصف المتبقي فكان على موعد مع نيزك يسير كالقدر على مهلٍ لا يجارى ليكمل المهمة ..

التفت الساق

بالساق

مصر / الاسكندرية

أواخر عام 2472 م ..

في بيته الحجري المطلّ على الشاطئ الأزرق الحالم و الهادئ، حيث تتناغم ضوضاء الأمواج و صيحات النوارس مع نبضان العروق ، جلس **الطبيب منذر** كأنّه آخر حارس على حافة العالم. الشمس تتهادى إلى المغيب في هدوء شبه أبدي، تعانق الأفق المبلل بضوءٍ غامضٍ يلامس أسرار الأزل. كان البيت صامتًا إلا من موسيقى **هايدن**، **سيمفونية الوداع** ، و هي تعزف كما لو أن الزمن ذاته يعزفها لأخر مرة على أوتار الضوء والغياب.

وضع ساقاً فوق ساق، ورشف من فنجان قهوته كأنّها آخر رشفة من دفء هذا العالم، ثم أغلق عينيه للحظة، ليستمع لما هو أبعد من الموسيقى : لحشرجة الأرض المكتومة، وهمسات القدر التي ترتجف بين طيات النسيم قبل العاصفة. لم يكن الطبيب منذر يؤمن بنظريات المؤامرة ولا يستسلم لنبوءات الكهنة، لكن شيئًا في داخله، شيئًا قديمًا ومرعبًا وجميلًا، أخبره أن النهاية لم تعد احتمالًا... بل أصبحت يقينًا.

لقد سمع ما قالته وكالات الفضاء، وحفظ تصريحات علماء الفلك :

(لقد عانت الأرض بما يكفي لعامين .. أما النيزك فسيمر بأمان، لا خطر على الأرض، بياناتنا مؤكدة)

لكنّ يقينه لم يأتِ من الرادارات ولا من المسارات المحسوبة. كان يقرأ النجوم على طريقته، لا بالتلسكوب، بل بالآيات.

لقد جلس طويلًا يراجع حساباته القرآنية، تلك التي طالما سخر منها زملاؤه في المؤتمرات، وقالوا إنها أوهام غيبية تُهدر ذكاءه العلمي. لكنه لم يكن يبحث عن تأييد أحد. فقد كان العقل عنده سلّمًا للصعود

إلى الروح، لا جدارًا لردّ الإيمان. وكان قد وجد في نصوص القرآن الكريم مفاتيح للزمن، إشارات نائمة بين الكلمات، كأنها أصداء من المستقبل تتسلل عبر الحروف.

الآيات التي كانت تُتلى في المساجد بخشوع تقليدي، صارت بين يديه شيفراتٌ من نور. رأى فيها أنّ هذا العام هو الأخير، هذا الشهر هو الأخير، هذا اليوم الذي سيبدأ فيه كل شيء... وينتهي فيه كل شيء..

هو لم يكن نبيًّا، ولم يدّعِ كشف الغيب، لكنه كان يعلم كما يُعلِّم الطبيب مريضه أن الموت قادم، حتى لو أصرّت التحاليل على العكس.

قال لنفسه بصوتٍ خفيض :

(الأرقام تنحني و تتنحى أمام مشيئة القدر. المكتوب لا يكترث بالعلم و لا الإحصائيات.)

كان يعلم أن بعض الحقائق لا تُقاس بالحسابات، بل تُحسّ، ترتجف لها العظام، وتدمع لها الأرواح قبل العيون.

و تمامًا كما لا تمطر السماء بلا غيوم، فكذلك، لا تتكثف الغيوم في سماء العالم بلا وعد خفي بمطرٍ قادم.

علامات الساعة التي توالت في السنوات الأخيرة لم تعد مجازًا دينيًا بل واقعًا يَخزُ القلب في يقظته : الفتن التي لا تنطفئ، الزلازل و البراكين التي تنحرف عن منطقها كما لو أن الأرض تلفظ جلدها، التصدّعات في قلب المدن الكبرى، تلال الذهب ، الأعور الدجال ، يأجوج و مأجوج .. ظهور يسوع و المهدي ثم اختفاؤهما الغامض بدون تفسير أو مقدمات .. والأهم... سكون العدل.

كان منذر يشعر أن الحياة أصبحت كفصلٍ أخير في مخطوطة عتيقة غامضة. فسرها عقله المتيم بالبحث ، بالتقصي ، بالعدسات

و المجاهر ، و ليس الذكاء الاصطناعي المتطور هذه المرة ، و الذي ينحني بجلاله أمام عظمة العقل البشري الذي لم تتجلى أسراره بعد رغم أن النهاية باتت على العتبات ..

كل شيء في مكانه، لكن بلا حركة. الطيور تطير لكن بلا غناء. الناس تبتسم لكن بلا رجاء. الزمن يمشي ببطءٍ غريب، كأنه يتحضّر لانكماشه الأخير.

(هذه اللحظات هي آخر أنفاس الحياة البشرية)

قالها لنفسه، لا كتنبّؤ، بل كتأكيد نهائي، أشبه بآخر تقرير طبي يكتبه عن جسد الكوكب الذي أحبه.

لم يعد يهتم بالجدل، ولا بإقناع أحد، فكل ما حوله – من زرقة البحر إلى لمعان النجوم، ومن نصوص النبوءة إلى رماد البركان البعيد – يهمس له بالحقيقة التي لم تعد تحتمل التجاهل : الآتي مدمّر.

لكن وسط كل هذا الإدراك، لم يكن مذعورًا، بل هادئًا. كأنّما السلام ليس في النجاة، بل في الاستعداد. في أن تُسلّم قلبك لحقيقة النهاية، دون أن تفقد الجمال في لحظة الحياة.

رفع فنجان القهوة من جديد، وأغمض عينيه على أنغام هايدن، وقال :

(ليكن ما يكون. المهم أن أكون حاضرًا حين يسدل هذا العالم ستارَه، وأصافح الضوء الأخير كمن يشكر الحياة على كل ما أعطت... وكل ما أخذت.)

*****

عندما ينزل الستار ..

مع اقتراب النيزك ، كانت الأرض ساكنة كجسد نائم على وسادة من الوهم. لم تُعلَن حالة الطوارئ، لم تُفرغ المدن، لم تُعطّل حركة الطيران، لم تُصدر بيانات إلا تلك المشبّعة بالغطرسة العلمية :

(لا خطر، النيزك سيمر بسلام.)

كانت وكالة سانا الفضائية تبثّ صورًا حرارية ومسارات محاكاة تحاكي انتصارات الإنسان على المجهول، لكنّ الطبيب منذر، من على شرفته المطلة على البحر، لم يكن يرى إلا شيئًا واحدًا : **غرور الإنسان وهو يبتسم في وجه الهاوية.**

لقد ألغى البشر الروح، وسخروا من الغيب، وعلّقوا قلوبهم بأجهزة تقيس السرعة والميل والانحراف، ونسوا أن للقدر مداراتٍ لا تراها أقمارهم الصناعية. ظنّوا أن المجرة كتاب رياضيات، وأن الكارثة مستحيلة طالما الأرقام في صفهم.

لكن في صدر الطبيب القديم، كان شعور لا يخطئ. لقد رأى ذلك قبلًا في النصوص، في الأحلام، في ارتعاشات الجلد حين يتلو آيات المصير. لم يكن ذلك النيزك عابر سبيل، بل زائرٌ يُشبه ملَك الموت، لا يطرق الباب، بل يقتحمه بقبضته النارية.

مرت الدقائق الأخيرة كأنها قرون. كل شيء بدا عادياً لوهلة، حتى حدث الانحراف الذي توقعه منذر و أنكره البقية ..

ارتجّ مسار النيزك فجأة، كما لو أن شيئًا في قلب الأرض تنفّس فجأة فامتصه. قال العلماء : **هذا غير ممكن**. وقالت الأرض : **هذا موعدي ، و ماذا يعني الممكن في حضرة الإله.**

ربما تأثر المجال المغناطيسي الأرضي بثورة البراكين في المحيط الهادئ، أو باهتزاز القشرة من الزلازل الأخيرة التي لم يجد لها العلماء تفسيرًا ، فأصبح أقوى و غير الحسابات و القوانين. لا يهم. المهم أن النيزك لم يعد يمرّ، بل يهبط.

هبط لا ببطء، بل كقبلة الموت، مندفعًا كرمح من رماد المجرات، اخترق الغلاف الجوي بسرعة تفوق أي صاروخ بشري، أضاء الليل بألف شمس. السماء لم تعد رمادية، بل صارت حمراء وذهبية وبرتقالية، كلوحة يوم القيامة ترسمها يد الجلال لا أنامل مايكل أنجلو كجدارية على جدران **كنيسة سيستينا** في مدينة **الفاتيكان** ..

رفع منذر عينيه من على شرفته إلى سماء الليل، ورأى النور يعمي العين ويشفي القلب. ابتسم بهدوء من عرف، لا من خاف. ثم قرأ، بصوتٍ كأنّه يرتّل للنهاية لا للنجاة :

﴿ و التفت الساق بالساق ۝ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾

كأنّ السماء سكتت، وانحنت. ثم صرخ الكون صرخة الميلاد العكسي.

اصطدم النيزك في المحيط الأطلسي بين أوروبا و أمريكا الشمالية، ضاربًا بعمق لا تصل إليه الغواصات، محرّرًا طاقة تفوق ملايين القنابل النووية. المياه لم تعد سائلة ، بل جدران من الرعب ترتفع آلاف الأمتار وتهوي فوق اليابسة كجناح طوفان عظيم .

اجتاحت أمواج التسونامي أربع قارات دفعة واحدة. أفريقيا لم تعد قارة، بل ساحة غرق. أوروبا ضاعت بين رغوة البحر ومزيج الحمم. شواطئ الأميركيتين لم تكن جاهزة لوداع الحياة، لكنها

وُدِّعت. مدن بأكملها ابتلعها الموج، عواصم غربية انهارت على مرأى الكاميرات ثم اختفت إلى الأبد، كأنها لم تكن.. أطلنتس لم تعد أسطورة قارة غارقة ، بل واقع قارات برمتها ..

في اللحظة نفسها، تصدّعت الأرض في كل مكان. زلازل تفوق مقياس ريختر، تحوّلت إلى خسوفات عظيمة، حيث انفتحت الأرض وابتلعت معالم التاريخ والحداثة بلا رحمة. أبراج هونج كونج، أهرامات الجيزة، المساجد، الكاتدرائيات، الجسور، وحتى طرقات مكة، كلّها تمايلت كأنها تقرّ بأن الساعة في برجها عزفت نشيد الوداع ..

و على ذات الدرب التي ودعت فيها الديناصورات الكوكب ، و دعت البشرية بغرورها و خطاياها موطنها إلى الأبد ..

لم يبقَ شيء.

هدأت الأرض.

اختفى صدى البشر.

لم يعد للكوكب صوت، فقط رماد وحطام وأصداء بكاءٍ انقطع قبل أن يكتمل.

انضمت الأرض إلى باقي كواكب النظام الشمسي، ككوكب بلا حياة، بلا ضوءٍ داخلي، فقط جثة زرقاء تدور ببطء في صمت المجرة.

وهكذا طُبعت قبلة النيزك، ليست على سطح الأرض... بل على جبهتها.

قبلة الموت.

قبلة القيامة.

نعم، نزل الستار على مسرحية الحياة التي ظلّت تُعرض لآلاف السنين، بلا توقف، بلا فواصل، بلا جمهور يُصفق في النهاية. أُسدلت الستارة لا بيد فنيٍّ في كواليس الزمن، بل بأمرٍ علويٍّ قاطع، لا يُلغى ولا يُبدّل.

وراء ذلك الستار، انطفأت الأنفاس، وتلاشت الشخصيات :
عصمت .. ديفيد .. منذر .. ميغيل و ماريانا .. باسكال .. يأجوج و مأجوج و البقية ..

لا مال نفع، ولا بنون.

لا أبراج شاهقة، ولا عملات مشفّرة.

لا وعود سياسية، ولا ترانيم دينية محفوظة عن ظهر قلب.

كل شيء تهاوى كدمى قش فقدت خيوطها.

كل المعادلات الرياضية صار صفراً.

و كل التطمينات غدت كوابيس أو أضغاث أحلام ..

فقدت القوانين قدرتها على التفسير، وانكمش الزمن على نفسه كما يفعل القلب حين يسمع صدى الحقيقة المطلقة.

كانت قبضة الإله هي الفصل الأخير.

قبضة لا تضرب... بل تمسك.

تمسك بكوكب بأسره، كما يُمسك حجر كريم في كفٍ خفية، حجر كان في البدء أبيضًا، ناصعًا، لكنّه سوّدته خطايا البشر، حتى كاد أن يختنق من ثقلهم.

ومع النفَس الأخير، لفظهم الكوكب كما تلفظ الروح آخر أنينها، واستعاد بياضه. بياضه الحقيقي. البياض الذي لا يعرف الزيف، ولا يُلوّثه الطمع، ولا يسكنه الكذب.

وها هو الستار مغلق.

لا تصفيق، لا تصحيح، لا موسم جديد.

فقط خشبة خالية... وكوكب طاهر يدور في صمت، يشبه السجود بعد التوبة.

*****

لمن تقرع الأجراس .. ؟

نعم، إنها حكاية من روح الخيال العلمي، لكنها ترتكز على جوهر الحقيقة، على ما يختبئ خلف الحسابات الجافة والتقارير العلمية الصارمة : هشاشة الإنسان، وغطرسته، وشوقه الأعمق إلى الخلاص... لا من كارثة سماوية، بل من نفسه.

وما بين زلزلة الصدوع ، و دخان البراكين، وانحناء الزمن، و وهج النيازك، هناك سؤال لا يموت :

هل نتعلم من نبوءاتنا، أم ننتظرها لتضرب ؟

الأجيال القادمة، التي ستولد بعينٍ إلكترونية وقلبٍ ميت، ستمرُّ حتماً بعتبات تلك الأسطورة... ربما لن يُدعى البطل منذر أو عصمت أو ديفيد أو ميغيل أو باسكال .. لكن سيكون هناك دومًا من يعلم و من لا يصغي ..

سيكون هناك طفل يقرأ كتابًا قديمًا ويكتشف أن الشمس قد أشرقت يومًا من الغرب.

سيكون هناك باحث يرى في الرماد البركاني علامة على شيء أعمق من المناخ و في زلزلة الأرض غضباً إلهياً ..

وسيكون هناك قلب، واحد فقط، يبتهل في العتمة قائلاً :

يا رب، اجعلها خاتمة رحيمة.

لقد كتبت أنامل الخيال - من خلال هذه الرواية - احتمالات النهاية، لكنها في الواقع كتبت أيضًا نبوءة الفرصة الأخيرة.

حكايتنا ليست مجرد خيال، بل مرآة تطرح على القارئ سؤالًا خفيًا :

(هل يمكن للروحانيات أن تكون هي الذكاء الاصطناعي الحقيقي ، ذاك الذي سينقذنا من أنفسنا ؟)

فإن كان في السماء غضبٌ، فلعلّه يُرجى...

وإن كانت النهاية مكتوبة، فربما في هامشها دعاءٌ قابل للتوقيع.

و إن كان حجر القلب قد اسود من كثرة الخطايا ، فلا يزال للنور كوة يمر منها و يغسل القلوب بطهارة لتنبض من جديد ..

أكمل الفصول و الأحداث بنفسك .. فالحكاية لا تنتهي عندما يسقط النيزك، بل عندما ينهض الضمير.

أكاد أخفيها ..

ملحق ثقافي :

منذ فجر الإدراك، حين بدأ الإنسان يرفع عينيه إلى السماء ويتساءل عن المصير، كانت فكرة نهاية العالم تُخيّم على الخيال الجمعي كظلّ لا ينزاح. لم تكن مجرد خوف من الموت، بل خوف من نهاية كل شيء : الأرض، والبحر، والنجوم، والذاكرة. لحظة تتوقّف فيها عقارب الزمن، ويتحوّل الكون إلى أنقاض صامتة.

وفي كل حضارة على امتداد المكان و الزمان ، نجد حكايات عن ذلك اليوم المريع الذي ستنتهي فيه الحياة كما نعرفها. اختلفت الأسباب والرموز، لكن النتيجة واحدة: الفناء المطلق.

الطوفان العظيم: الغرق الأول في الذاكرة :

ربما تكون أسطورة الطوفان هي أقدم صور نهاية العالم المتداولة بين البشر. وردت في **ملحمة جلجامش السومرية**، وسُجّلت في التوراة، وتناقلتها شعوب الهند والصين وأمريكا الجنوبية.

تحكي الأسطورة عن طوفان يغمر الأرض كلها، يُرسل من السماء غضبًا أو تطهيرًا، فيمحو الحضارات ويترك الناجين القلائل وحدهم وسط الماء، ليبدأوا من جديد.

لم يكن الطوفان مجرد كارثة طبيعية، بل تطهير كوني، كأن العالم يضيق بأهله، فيُغسل ليولد من رماده إنسانٌ آخر. حتى الآن، يشعر البشر برهبة غريبة تجاه الماء الغامر، كأنه يحمل ذاكرة فناء قديم، محفور في اللاوعي.

النار الإلهية في الأساطير النوردية: الراجناروك

في شمال أوروبا، حيث العواصف الثلجية لا ترحم، تخيّلت قبائل

الفايكنغ نهاية العالم عبر مشهد أسطوري اسمه: الراجناروك.

فيه تنفجر الشمس كشرارة شيطانية، وتلتهم النيران الجبال والأنهار، بينما تنطلق الذئاب والعمالقة من سجونهم، وتبتلع الثعابين السماوية السماء. لا أحد ينجو. تموت الآلهة مع البشر، وتُمحى المدن، ويذوب الجليد في طوفان ناري لا يُبقي شيئًا.

لكن بعد الفناء، يولد عالم جديد من الرماد: نظيف، ناعم، فيه أزهار تنبت على المقابر، وسماوات لا تعرف الحرب. تصور نادر لا يرى في النهاية ختامًا، بل بداية متطهّرة.

الكون يبتلع ذاته: الفناء في الهندوسية

في الفلسفة الهندوسية، نهاية العالم ليست حدثًا مفاجئًا، بل جزء من دورة كونية أزلية. الكون يُخلق، ثم يزدهر، ثم ينهار في النهاية مع رقصة **الإله شيفا** ، الذي يُدمّر العالم كي يولد من جديد.

الزلازل، الفيضانات، الجفاف، الانفجارات الكونية... ليست عقوبات، بل إيقاعات كونية ضمن تنفّس الزمن. الكواكب تحترق، النجوم تنهار، ولكن من هذا الانهيار يُصاغ عالم جديد، كما يولد الطفل من رحم الموت.

الخطر من فوق: مذنبات، نيازك، ودمار شمسي

في حضارات المايا و الإنكا، وحتّى عند بعض قبائل أستراليا القديمة، رُبطت نهاية العالم بانفجارٍ قادمٍ من السماء: مذنب، أو شهاب، أو شمس تغضب.

رأى شعب المايا أن الزمان يسير في دورات ضخمة، وفي نهاية كل دورة، قد ينهار كل شيء بسبب حدث سماوي هائل.
والنصوص الحجرية تتحدث عن نيران تنهمر من السماء، واهتزازات في الأرض، واختفاء الشمس لثلاثة أيام.

العلم اليوم لا يستبعد هذا. اصطدام نيزك بقطر عشرة كيلومترات قد يكفي لإبادة الحضارة، كما حدث مع الديناصورات. ربما كان الخيال الشعبي أسبق من العلم، وقد يكون حدس الإنسان عن السماء نابعًا من ذاكرة كارثة قديمة حُفرت في الحمض النووي.

الجمود التام: **العالم يتجمّد في الأساطير السيبيرية**

في أقصى الشمال، حيث الليل يدوم أشهرًا، تخيّلت بعض الشعوب نهاية العالم كشتاء لا ينتهي. في الأساطير السيبيرية، تموت الشمس يومًا، ويتجمّد العالم كله في صمت أبيض. لا ضوء، لا دفء، لا حياة.. الكون يتحوّل إلى تمثال جليدي هائل، معلّق في الفراغ. لا فوضى، لا نار، لا طوفان. فقط البرودة الصامتة، كأن الزمن ذاته توقف عن الحركة. ورغم بساطة هذا التصوّر، إلا أنه من أكثرها رعبًا، لأنه لا يمنح فرصة للنجاة، بل فقط الخمود.

النهاية بالعبث: **الخلق يفقد المعنى**

في بعض الأساطير الفلسفية – خصوصًا في اليونان والرومان – ظهرت فكرة أن العالم لا ينتهي بطوفان أو نار، بل بفقدان المعنى. حين يصبح العدل نادرًا، والأخلاق منهارة، والمجتمعات متفسخة، يتفكك الكون تلقائيًا.

هذه ليست نهاية كونية، بل نهاية داخلية. الإنسان نفسه يتحوّل إلى آلة شهوانية، واللغة تفقد صدقها، والروابط تنقطع. حينها، يتهاوى العالم من الداخل. وهذه الفكرة تشبه نبوءات بعض الحكماء الذين قالوا : **العالم لا يُدمَّر بصاعقة، بل بـ لا مبالاة الجميع**.

في الأديان السماوية : **يوم الحساب** :

لم تكن الأديان السماوية بمعزل عن ذلك الهاجس الكوني. لقد حملت الكتب المقدسة رؤى مروّعة ومهيبة لنهاية الزمان، لكنها –

على عكس الأساطير القديمة – لم تكتفِ بوصف الدمار، بل ربطت النهاية بمغزى أخلاقي وروحي. العالم لا ينتهي فجأة، بل كنتيجة لانحراف البشر، كأن الفناء ليس مجرد حادثة طبيعية، بل حكمٌ يصدره العدل الإلهي بعد طول صبر.

في اليهودية: يوم الظلمة العظيمة :

في التوراة، وخاصة في أسفار الأنبياء مثل عاموس وإشعياء، نجد إشارات إلى يوم الرب ، يوم رهيب لا يُشبه سواه. تقول النصوص إن الشمس تُظلم في الظهيرة، والقمر يتحوّل إلى دم، وتنتشر الزلازل والمجاعات. المدن تنهار، والنجوم تتساقط، والجبال تذوب أمام غضب الرب.

لكن هذا اليوم ليس فقط كارثة، بل أيضًا نقطة تحوّل. فبعد الخراب، يأتي العهد الجديد: يعود المنفيّون، يُقام المعبد من رماده، وتبدأ مملكة السلام التي طال انتظارها.

الرؤية اليهودية تمزج الألم بالأمل، والدمار بالخلاص، وكأن النهاية ضرورية لتطهير العالم من الخطيئة الجماعية.

في المسيحية: سفر الرؤيا وعنف النهايات

أما في المسيحية، فقد تجلّت أكثر صور نهاية العالم رعبًا وعمقًا في سفر الرؤيا، آخر أسفار العهد الجديد. هناك، نجد سردًا رمزيًا مليئًا بالختم السابع، والمذبح المكسور، والفرسان الأربعة، والوحش الذي يخرج من البحر.

ينفخ الملائكة الأبواق، فتهطل النار من السماء، وتُصاب المياه بمرارة، وتنتشر المجاعات والأوبئة. قوى الظلام تحكم الأرض لفترة، ثم تُشنّ حرب نهائية في **هرمجدون** ، حيث ينتصر المسيح وتبدأ السماء الجديدة والأرض الجديدة ..

الرؤية المسيحية تُقدّم نهاية العالم كدراما كونية ذات طابع ثنائي: صراع مطلق بين الخير والشر، ينتهي بانتصار النور، لكن بثمن هائل. لا أحد يخرج منها كما دخل. إنها النهاية التي تمهّد لفجرٍ مختلف.

في الإسلام: انفراط النظام الكوني

في القرآن الكريم والحديث الشريف، نجد أوصافًا دقيقة ليوم النهاية. لا تُقدَّم كمجرد مشهد مرعب، بل كيقين قادم، محفور في صلب العقيدة. يسميه القرآن بأسماء متعددة: الساعة ، القارعة ، الطامة ، الصاخة ، يوم الفصل ، يوم الحساب ، يوم القيامة ، الغاشية ...

يبدأ المشهد بنفخة في الصورفتبدأ علامات الساعة بالتوالي ؛ تتزلزل الأرض، وتتفكك الجبال، وتُسجّر البحار، وتتساقط النجوم، ويغشى الدخان السماء. لا مكان يُلجأ إليه. لا زمن يُمهل. كل شيء يُجرد من زخرفه. كل نفس تحضر لتحاسب.

ثم تأتي النفخة الثانية، ويُبعث الموتى، وتُعرض الصحف، وتُوزن الأعمال. الجنة والنار تنفتحان على المصائر الأبدية.

لكن ما يميّز التصوّر الإسلامي هو الربط القوي بين نهاية الكون ونهاية العدالة المؤجّلة. يوم القيامة ليس مجرد فناء، بل كشف للحقيقة، محكمة لا يضيع فيها صوت أو أثر. وكل ذرة فعل، مهما خفي، يُستدعى.. و في روايتنا المتواضعة هذه اعتمدنا النسخة الإسلامية للساعة و علاماتها كما وصلنا على لسان نبي الرحمة و هذا يليق بخاتم الأنبياء و المرسلين و آخر الأديان السماوية على هذا الكوكب ..

أكاد أخفيها ..

محتوى الكتاب :

○ جبل الذهب ..

● مذنب القيامة ..

○ أكاد أخفيها ..

● مخطوطة فوينيش ، خريطة بيري ريس و هرم إلسوورث ..

○ سد ذي القرنين ..

● الناقة المعجزة و النار العظيمة ..

○ أعور الجن ..

● صراع العمالقة ..

○ يسوع و المهدي ..

● و جمع الشمس و القمر في قلب الدخان..

○ التفت الساق بالساق ..